سورةُ الغاشيةِ
دراسةٌ نَصِّيَّةٌ

أ.د. جمال عبد العزيز أحمد
كلية دار العلوم / جامعة القاهرة
جمهورية مصر العربية

Surah Al-Ghashiya
Text study

Prof.Dr. Gamal Abdel Aziz Ahmed
Cairo University / Faculty of Dar Al Uloom
Republic of Egypt
Email: Drgamal2121@gmail.com

بين يدي البحث:

سورة الغاشية من السور المكية باتفاق، وآياتها ست وعشرون آية، وهي معدودة السابعة والستين في عداد نزول السور، ونزلت بعد سورة الذاريات، وقيل بعد سورة الكهف.

ومن أهدافها ومقاصدها الحديث عن تهويل يوم القيامة، وما فيه من عقاب وجزاء، وثواب وفضل، وتحدثت عن الصنفين اللذين ستقسم عليهما الخلائق، وذكرت أوصاف كل بصورة دقيقة، وفي ثوب لغوي قرآني آسر، وتخللها أساليب لغوية كثيرة، وروابط لفظية عديدة متنت لأواصر النص، وأبرزته في نسيج لغوي متكامل، وصارت مع الإنسان تشد انتباهه، وتجذب عقله، وفكره، وروحه، وعقله، وأوقفته على أحداث اليوم الرهيب الرعيب، يوم القيام، وكان الهدف الأسمى هو تبصير المؤمنين بمآلاتهم الطيبة، وإيقاف الكافرين العاصين على حتمية نهاياتهم السيئة، وكشفتْ عن كثير من تفاصيل اليوم الآخر؛ ليحيا من حي عن بينة، ويهلك من هلك عن بينة، ووضعتْ خارطة الطريق لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد، وقد حاولتُ محاولة بشرية يسيرة؛ لأقترب من معينها الفياض، ونبعها المتفجر بالمعاني، المشحون بالدلالات، وطبقْتُ متطلبات نحو النص، وقد جاءت على الصورة التي ترى.

فإنْ كنتُ قد وُفِّقْتُ فذاك هو المنتهى، والمقصد، وتلك هي الغاية التي أنشدها، وإنْ كانت الأخرى فحسبي نبل غايتي، وصدق خطاي، والله وحده هو الموفق، والهادي إلى سواء السبيل .

طريقتي في التحليل، والتناول النصي للآيات:

أخذت السورة آية بعد آية، واستخرجتُ فيها ما يكشف عن شدة تماسكها، وقويِّ ترابطها: لفظيا ومعنويا، وتوقفتُ عند كل كلمة، ونظرت فيما دخلها من عوارض التركيب، وتعمقت في دلالاتها، وكذا عند الحروف وبينْتُ دورها،

والأساليب، ومضامينها، وتوقفتُ كثيرا عند ما وراء اللفظ، والتركيب من مرام ومقاصد، وغايات، وحِكَم، ودلالات، وقدمتُ تلك المحاولة مبتغيا وجه الله، والدار الآخرة، ومُوقِفًا القارئَ الكريم على لون من ألوان الإعجاز البلاغي، عبر الدراسة النصية، ولا شك أنّ السورة تحتاج إلى كثير من البحث اللساني والنصي والدلالي؛ لكي نوفيها حقها، والله من وراء القصد.

سورة الغاشية

(دراسة نصية)

تعاورَتِ الدراساتُ الحديثةُ، والمعاصرة على دراسة لغة القرآن الكريم، ونشأتْ حوله دراساتٌ جديدةٌ بمسمَّياتٍ فريدةٍ، منها الدراساتُ النَّصِّيَّة، والدراسات اللسانية، ومنها قضايا تتصل بها، مثل السبكُ، والحبك، والروابط اللفظية، ومنها عوارضُ التركيب، ونحوُ النص، ومنها العلاماتية والرمز، ومنها الدراسات العِرْفانية، والتواصلية، وشاعَتْ مصطلحاتٌ عصريةٌ، ونُودِيَ بدراسة النصوص القرآنية دراسةً كليةً، والنظر إلى نسيج النص القرآني على أنّه لُحْمَة واحدة، وتَجاوُزِ دراسة القدامى فيما يُسَمَّى بنحو الجملة، وكلُّها في الحقيقة نظراتٌ متقاربةٌ، فالذي ينظر إلى نحو النص، واعتبار النصِّ كلِّه بمثابةِ جملةٍ واحدةٍ لم يَبْعُدْ كثيرًا عن الذي نظر نظرة جزئية- في نظر النحويين المعاصرين-؛ لأنه يعود، فتراه يعرب النص إعرابا كليًّا، وينظر في تماسك العبارات، والجمل، ويبحث في الجمل المعطوفة ، والتعليلية والتفسيرية، (الحبك)، ويتجاوز إعراب اللفظ، والكلمة إلى العلاقات بين الجمل، وتواصُل تشابكها، كما لو كان صاحبُ نحو الجملة، قد عاد ثانية بعد النظرة الإفرادية الجزئية، ونظر إلى النص نظرة كلية، اقتربت من نظر النحوي الحديث في نحو النص، وما قولهم - أي أهل البلاغة- بالصور الكلية التي في طيَّاتِها صور جزئية، إلا لونٌ من ألوان النظر النصي، اللساني للتراكيب، وقضية عَوْدِ الضمير عند قدامى النحويين هي ما يُسَمُّونه حديثًا بالإحالة، وما عوارضُ التركيب - التي

طاروا بها- إلّا كما كان يدرس النحويون القدامى قضايا الحذف الواجب والجائز، ويكتبوا آراءهم في إيراده، ودلالات الحذف، وبلاغته، وقضايا الفصل، وشرائطه، ولديهم قضايا التقديم والتأخير: الجائز، والواجب، وعندهم شرائط الفصل، ومتى يُرَدُّ، ومتى يُقبَل، وهي قضية متعلقة بصُلب المعنى، وأصل الدلالة-، وقضية الجمل الاعتراضية، والجمل المستأنفة، وفاء الجزاء، أو الفاء التفريعية، كلُّ ذلك يجعلنا لا نحمِّلْ على قدامى النحاة، كلُّ المسألة أنّ المعاصرين قد انْتَقَوْا مصطلحاتٍ جاءت بشكل تطبيقي عند قدامى النحويين، وجَرَتْ على ألسنة القدامى- عند التحقيق- تلك المصطلحات المعاصرة؛ ممَّا حدا ببعض العلماء المحدثين أن يؤلِّف كتابًا يبيِّن فيه أنّ المعاصرين- بكل مصطلحاتهم، ومناهجهم، وكتبهم- هم عيالٌ على السَّلَفِ، وتراثهم، وتراكمهم المعرفي، وبيَّن أنّ كلَّ ما ورد من دراساتٍ حديثةٍ إنّما هو موجودٌ لحمًا ودمًا عند القدامى، واستشهد لكل المذاهب والعلوم بما ورد عن السلف، وهم - في كل ذلك- أصحابُ الفضل فيما جدَّ وطفا على السطح، مما أشرتُ إليه سلفا، وجاء في كتب القدامى مُوَصَّفًا أفضلَ توصيفٍ، غير أنّهم لم يشاؤوا أن يُحدِثوا ما لم يتعارفْ عليه من المصطلحات، وعندنا قاعدة عدم إحداث رأي ثالث في الدين وغيره من فروع اللغة؛ حيث إنهم ما داموا قد استقروا على مصطلحاتٍ وحددوها، ومضت بينهم- فلا يجوز الخروجُ عليها، وقضيةُ الحفاظ على الثوابت مسألةٌ راسخة في أذهاننا، مرتكزةٌ في أعماقنا، ولو شاء الأقدمون لقالوا، ولتوسعوا، ولكنهم كانوا يخافونَ على تراثهم، وما وصلوا إليه من قمم القواعد، وجليل الضوابط، ومجد التأليف، فما أرادوا أن يحدثوا بِدْعًا في المصطلحات، ولا جديدًا في التناول النحوي والإعرابي للنصوص، ولعل الإمامَ عبدَ القاهر الجرجانيَّ في كتبه، والإمام البقاعي في دُرَرِه، وغيرهم هم مَنْ كانوا قادةً في مجال نحو النص، والدراسات التطبيقية لنصوص القرآن الكريم، وهم أولُ مَنْ أشار إلى الترابط النصيِّ، والتماسكِ الدلالي، وبحثوا في النصِّ: سبكًا، وحبكا، وتناغُمِ النسيج النصي، وتداخُل الدلالات، والرؤية الكلية

للنص اللغوي، ووسائل تماسكه، وأشاروا إلى أنّ الجناسَ، والتوريةَ، وكلَّ أبواب البلاغة قد استعان بها المعاصرون لإحْباك مناهجِهم، والاستعلاء على القدامى، أصحاب الحق الأصلي، والأصيل، وما نظريةُ النظم لعبد القاهر ببعيدة عنا، وكلُّ مَنْ تناول لغةَ القرآن الكريم بالتحليل قد أشار إلى كثير من تلك العلوم، وهاتيك المصطلحاتِ، وشَرَحها شرحًا يُجَنُّ معه العقلُ، إذ كيف توصلوا إلى تلك المفاهيم، وهم في زمن بعيد، بل زمنٍ سحيق؛ ذلك لأنّ النظرَ في كتاب الله يجعلك تبتكر قواعدَ، ومصطلحاتٍ جديدةً؛ لأنه لا يَخْلَقُ على كثرة الرَّدِّ، ولا يشبع منه العلماءُ، وما تعبيرُ ابن جني عن الحذف بشجاعة العربية منا ببعيدٍ هو الآخر، وما رأيُهم في قضية "الزائد في القرآن الكريم" ببعيدة؛ حيث أدلوا بآرائهم الفريدة، وأعادوا جمالَ النصِّ إلى مكانته، وما حديثُ البلاغيين عن المجازات، والاستعارات، والتشبيه التمثيلي، المركب- ببعيدة عن نظر النحويين المعاصرين لنحو النص، وكلية النظر إلى التراكيب، والنظرة السطحية المتعجلة، والنظرة العميقة المتأنية، كلُّ ذلك يُعِيد الحق إلى أهله، ويقلِّل من صَيْحَةِ المعاصرين أنهم الذين أبدعوا، وأحدثوا ما يَقُلْهُ الأوائلُ، وهنا أتذكر قولَ الشاعر المعري الذي يشخِّص الحالة التي بين أيدينا، بين القدامى والمحدثين في العلوم التي قالوا : إنها لنا، ونحن مبتدعوها، وهذا المعري الذي انتشى في قوله، وأعلن عاليًا بصوته أنّه لا عِدْلَ، وأنه وحيد قرنه، وشمس عصره، وذلك في بيته الشهير:

وَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ الْأَخِيرَ زَمَانُهُ ... لَآَتٍ بِمَا لَمْ تَسْتَطِعْهُ الْأَوَائِلُ

فقال له رجلٌ من البسطاء: يا إمامُ، لقد أتى الأولون بتسعة وعشرين حرفًا، فما أتيتَ أنت؟.

قالوا: فسُقِطَ في يده، وحَار جوابًا، وتزحَّر لسانه، وألجمَه الصمتُ، وعاد إلى غَرْزِه، وعَرَفَ قَدْرَ نفسه، ونفَسه، وأطرق رأسَه، والتزم البَكَمَ؛ دليلا على ضعفه، وعدم تقديمه شيئًا جديدًا يُذكَر، وأنّ الخيرَ فيما أتانا عن أسلافنا، ووَرَدَ عن أجدادنا.

تلك مقدمةٌ أردتُ بها أن ألفت النظر إلى ظلم المحدثين للقدامى، واعتلاء ألسنتهم على أجدادهم الذين كان لهم أكبرُ الأثر في كل هذا التراث المعرفي الذي لم تأتِ به أمةٌ من قبلُ، فلدينا آلافُ التفاسير، ومئات الآلاف من الموسوعات بكل ألوانها، وأصنافها، وأوبارها، وأشعارها، وملايين المخطوطات، ومثلها من الدراسات الواردة للقدامى في كل ناحية، وزاوية من نواحي العلم، وزاوياه: شعرا ونثرا، ولكل نوع منهما أصنافٌ وأطيافٌ، وألوانٌ وأنواعٌ.

نتجاوز تلك النقطةَ إلى الدخول إلى التحليل اللساني، ودراسة السورة الجليلة دراسةً نصية، في إطار معطيات نحو النص الذي- كما قالوا- ، يتجاوز نحو الجملة، ويتعداه إلى النظرة الكلية للنص؛ بوصفه نسيجًا واحدًا، متناغما، متداخلا، ممتزجا، مرتبطا ارتباطا عضويًّا بما قبله، وما بعده، وكأن السورة الكريمة قد تضاغَطَتْ حتى صارتْ آيةً واحدةً من شدة تماسِكها النصي، وقوة ترابِطها الدلالي، ونشير في النهاية إلى ما دخلها من أساليبَ، وتعلُّق، وروابطَ لفظيةٍ، كما نوضح ما فيها من سَبْكٍ، وحَبْك كبيرين، أصيلَيْن، وننظر في العلاقات النصية بين آيها الكريمات؛ لنبين أنّها مترابطة كلَّ الترابط، متداخلة كلَّ التداخل، لا يمكن أن تفصلَ منها عضوًا عن الآخر؛ لأنّ كلَّ عضو له مهمتُه، وهي جسدٌ واحد، له قلبٌ، وعقلٌ، وجسدٌ، وأعضاءٌ، كلٌّ يعرف مهمتَه، وكلٌّ يؤدِّي رسالتَه، وكلٌّ يُسهِم بدلالتهن ، ويرمي بها في الدلالة الكلية للسورة، ويهدف كلٌّ، ويتقاطع ترابطا، وخيوطا متشابكة، ويصب في المقاصد الكلية لها، ويغْنِي المعاني الإجمالية فيها، ويبني ويعلي في المرامي، والمقاصد العامة، والخاصة، فأسهمتِ الكلمة، وأسهمتْ كذلك الحركة، وأَدَّتِ الجملة معناها، وتوسَّدَتْ مبناها، وأبانت بوضحٍ عن فحواها، ومغناها، وقام الأسلوبُ فيها بما يمليه عليه السياقُ، كلُّه يصب في كلهن وجزؤه يعود إلى كله، وفرعه يرتد إلى أصله، فكله من كله، ولكله، إنّما هو إسهامٌ، وبناءٌ في صلب العمل الذي لا استغناء معه لأي حركة، أو حرف، أو بِنْيَةٍ، أو تركيب، الجميعُ يعمل في إطار متعاون، ويُدْرِك

مهمته، ويُحسِن فهمَ رسالته، إنها- أي السورة الكريمة- كالكائن الحي لا استغناء معه لأيِّ جزء فيه مهما صغُر، أو كَبُرَ؛ لأنّ له رسالةً، ومهمةً، ووظيفةً يَعِيهَا، وينهضُ لها، ويدركُها، ويقومُ بها.

آيات السورة الكريمة:

هذه السورة مكية، وهي ست وعشرون آية -كما سلف-.

قال الله- تعالى-: " ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ
خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾
لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ
يَوۡمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾
فِيهَا عَيۡنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرۡفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكۡوَابٌ مَّوۡضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ
مَصۡفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴿١٧﴾ وَإِلَى
ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ
سُطِحَتۡ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ﴿٢١﴾ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن
تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا
حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾" سورة الغاشية.

التحليل النصي لآيات السورة الجليلة:

الآية الأولى: "هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ".

"هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ" بدأت السورة ببراعة الاستهلال، المتمثل في إلقاء هذا السؤال بأداة الاستفهام: (هل)، والذي يجعل النفسَ مُشْرَئِبَّة لمعرفة الجواب، تستحضرُ هِمَّتَها، وتستنهض عزيمتها، وتفتح عينيها، وعقلها، فتلقى الجواب، فالنفسُ دائمًا تحبُّ التعرفَ على الجديد، والمجهول، وغير المعلوم، وخاصةً في الكتاب العزيز، فالسؤال هنا قد جذب تلك النفسَ، واستجمع عزمَها، وحبَّها، وعقلها

لمعرفـة حديـث الغاشـية، فهـذا المطلـع بمثابـة شُـعْلَةٍ لإيقـاظ العقـل، ولفْـت الحـس، والشـعور، وانفتـاح العقـل والـروح، والقلـب، وهـو وسـيلة مـن وسـائل الوعـي، وحفـز الهمـم، واستشراف النفـس حـول معرفـة الجـواب، وهـو كنايـة عـن جـلال القـرآن في جـذب الإنسـان: قلبا، وقالبـا، إلى حديـث القـرآن الكريـم، والله هـو الـذي خلـق النفـس، والـروح، ويعلـم حقيقتهـا، وخاصـة حديـث القـرآن الكريـم عـن موضـوع لم تعهـدْه تلـك النفـوس مـن قبـلُ، كحديـث الغاشـية، وهـو مـن أسـماء يـوم القيامـة، ذلـك اليـوم الـذي تعـدَّد وصفُـه، وتكـرَّر الحديـثُ عنـه، حتـى إنَّ القلـب لينخلـعُ عنـد كلِّ وصـفٍ مـن أوصافـه، وَوَسْـمٍ مـن أوسـامه، ونَعْـتٍ مـن نعوتـه، وتقشـعر النفـس مـن خطورتـه، وبشـاعة أحداثـه، واتسـاع مراحلـه، وتَعَـبِ، وإرهـاق منازلـه، وفي الحقيقـة، فـإنّ المعايشـة فيـه، واسـترجاع مـا حـكاه القـرآن عنـه، وعـن منازلـه– أمـرٌ يجعـلُ القلـبَ في وجـلٍ، وهلـع متواصلـيْن، واضطـراب، وارتعـاب متصاعديْـنِ، وقـد تكـون(هـل) بمعنـى (قـد) كـما في تفسـير البغـوي، فهـو اسـتفهام يحمـل معنـى التأكيـد وترسـيخ مجـيء حديـث الغاشـية[1].

ثـم تـأتي الجملـة الفعليـة التـي حَـدَثَ فيهـا عـارضُ التقديـم، والتأخير(أتـاك حديـثُ الغاشـية"؛ حيـث تقـدم المفعـول بـه، وتأخَّـر الفاعـل وجوبـا؛ لأنّ الفاعـل اسـمٌ ظاهـرٌ، والمفعـولَ بـه ضمـيرٌ متصـلٌ، والمفعـول بـه هـو الـكاف العائـدة عـلى شـخصه الشريـف، وشـخوص مَـنْ آمـن بـه، والحديـثُ لا يـأتي؛ لأنّـه معنـويٌّ، ولكنـه هنـا فاعـل مؤخـر؛ لتشـوُّف النفـسُ إلى معرفتـه، والغريـبُ أنّـه يعـرف الرسـول، ويـأتي إليـه، وهـو عنـد البلاغيـين مجـازٌ عقـليٌّ علاقتـه الفاعليـة، أو علاقتـه المصدريـة؛ لأنّ "حديـث" مصـدر الفعـل الثلاثـي: "حـدث"، بـوزن فَعَـلَ، وجـيء بـه عـلى سـبيل الاسـتعارة؛ حيـث شـبَّه الحديـثَ بإنسـان، وحـذف المشـبه بـه، وأتـى بلازمـة مـن لوازمـه، وهـي المجـيء، والإتيـان، والإضافـة لبيـان الخطـورة، والفـزع مـن الغاشـية التـي هـي اسـم فاعـل مـن

(١) تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ، ٣٠/ ٢٩٤–٢٩٥، وإعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين الدرويش ،١٠/ ٤٥٧–٤٥٨، و البحر المحيط لأبي حيان ،١٠/ ٤٦١، وتفسيرمعالم التنزيل للبغوي ، ٨/ ٤٠٧.

الفعل "غشي"، والغاشية من أسماء يوم القيامة، وهي تغشى الناسَ جميعًا، وتُغَطِّيهم بأحداثها، وتشملُهم بأهوالها، وفظائعِ مراحلها، وخطورةِ شأنها، وقدرها، والغاشية مشتقة من الغشيان، وهو تغطية متمكنة، وهي صفة، أريد بها حادثة القيامة، سميت غاشية على وجه الاستعارة؛ لأنّها إذا حصلت لم يجد الناس مفرا من أهوالها، فكأنها غاش يغشى على عقولهم، ويطلق الغشيان على غيبوبة العقل، فيجوز أن يكون وصف الغاشية مشتقا منه، ففهم من هذا أنّ الغاشية صفة لمحذوف، يدل عليه السياق، وتأنيث الغاشية لتأويلها بالحادثة، ولم يستعملوها إلّا مؤنثة اللفظ(١)، والاستفهام هنا غريب؛ إذ كيف يأتيه اليومُ؟، وهو لم يعلم ذلك، ومتى أتاه؟، واليوم الآخر لم يأت بعدُ؟!، وميعاده آخرُ الحياة، وعند انتهاء الدنيا، وخراب العمران"!، فكيف يقال له:"هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ "؟، إنّه سؤال يُشعِل الذهنَ، ويُوقِدَ العقلَ في التفكير فيه، وفي أحداثه، ووقائعه، ومراحله.

فهو تساؤل من أوله إلى آخره غريبٌ مَهيبٌ، ورهيب رعيب، وعجيب عجيب، والأعجب أن يكون الحديثُ واعيا، ويأتي إلى رسول الله- صلى الله عليه، وسلم-، وفحوى الخطاب أنّه سيكون من الاشتهار، والإعلام بحيث يأتي خبره، وحديثه إلى كلِّ نفس مخلوقة، وسيصل إلى موضع قدميه كلُّ مَنْ خلقه الله من يومِ خَلَقَ آدمَ- عليه السلام- إلى يوم البعث، والنشور.

فقد حقَّق السؤالُ بأداته، وعارض التقديم فيه، والمجاز العقلي، والاستعارة المكنية، وبراعة الاستهلال- مهابةَ اليوم في كلِّ قلب، وخطورةَ الحديث في كلِ نفس، وهولَ الموقفِ بين يدي كلِّ مخلوق له مُسْكَةٌ من عقل، ونُتْفَة من تفكير، وبقية من نظر، وشيء من الرؤية، والاعتبار(٢).

(١) كما جاء في التحرير والتنوير، ٣٠/ ٢٩٤ ، وينظر: إعراب القرآن وبيانه للدرويش، ١٠/ ٤٥٧- ٤٥٨ .

(٢) ينظر: البحر المحيط، ١٠/ ٤٦١ .

الآية الثانية: " وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢)".

بدأ القرآنُ الكريم في تقسيمِ الخلق إلى صنفين، وعبَّر عن كل قسم بالوجه، فلدينا وجهان؛ وجهُ الكفار، وما سيكونون عليه في هذا اليوم المَهول، ووجهُ أهل الإيمان، وما سيكونون عليه في هذا اليوم المَهيب، فقال- تعالى-: "وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ" تعجَّل القرآنُ الجوابَ عن السؤال الذي طرحه في ابتداء الآية، وصَدَمَ القُرَّاءَ بالخبر، واكتفى بالركنِ الثاني من التركيب الإسنادي، وهو الخبر، والأصل حديث الغاشية هو وجوهٌ..."، ولكنه لم يشأ أن يَبْعُدَ بالجواب، وإنما جَبَهَ به أهلَه، وسارع بإلقاء الجوابِ في وجوه أصحابِه، والتعبير بالوجه هو مجازٌ مرسَلٌ، علاقته الجزئية، حيث أطلق الجزء،(وهو الوجه)، وأراد الكل،(وهو النفس)، ولما كان الوجهُ هو المعبِّر عن النفس، والإنسان كلِّه، وهو أشرف مكانٍ يتعرف منه الخلقُ على بعضهم، فقد بدأ به، واقتصر عليه، وهو محلُّ الفرح والسرور، والتعبير به تعبيرٌ عما في النفس من تَرَحٍ، وفَرَحٍ، وغضبٍ، وهدوء، وسعادة، وبلادة، وضيق، واتساع، وغيرها من المشاعر والأحاسيس،[1] وقد قال الشاعر في ذلك:

النفس تعرف من عينَيْ محدِثها ... إن كان من حزبِها أو من أعادِيها

فعارِضُ الحذفِ هنا قد أدَّى دورًا كبيرًا حيث عجَّل بالخبر، فلم يتأخر كثيرًا، وحذف المبتدأَ حتى يتذكرَ المرءُ وصفَ هؤلاء عاجلا فيعمل ما يُبْعِدُهُ عن هذا المَهوَى السحيق، والمنظر الصعب الفظيعِ، كما أن التعبير بـ(وجوه) -وهو جمع كثرة بوزن "فُعُول"- كناية عن الأشخاص، فعبر عن أبرز مكان في الجسم، قال الطاهر بن عاشور: "فالوجوه كناية عن أصحابها؛ إذ يكنى بالوجه عن الذات، كما في قوله- تعالى-:" ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام، وقرينة ذلك هنا قوله بعده: "ليس لهم طعام إلا من ضريع"؛ إذ جعل ضمير الوجوه جماعة العقلاء"[2]، وجمع الكثرة

(١) التحرير والتنوير، ٣٠/ ٢٩٣-٢٩٤، والبحر المحيط ،١٠/ ٤٦٢.
(٢) التحرير والتنوير، ٣/ ٢٩٥.

فيه ما يخيف، ويبعثُ على الهلع الشديد، فجمْع الكثرة، وهذا من أحد أوزانه، التي رَبَتْ على الثلاثين وزنًا، وصيغة في اللغة العربية يعني أنّ تلك الوجوهَ ستكون بالمليارات، فهو يبدأ من العشرة إلى ما لا نهاية له من الأعداد، على شاكلة: " قلوبٌ يومئذ واجفة، أبصارها خاشعة، يقولون إئنا لمردودون في الحافرة، أئذا كنا عظاما نخرة، قالوا تلك إذًا كرة خاسرة"، فوزن "فُعُول" هنا وزنٌ مخيف، يجعل الإنسانَ العاقلَ يخشى أن يكونَ قد دخل فيهم، وكان من بينهم؛ لأنّه يعني له كثرةَ الأعداد كثرةً كاثرةً، ودخولَ المليارات تحت هذا الوزن، فلا يكادُ يبرح اللفظَ حتى تفيضَ عيناهُ دموعًا، بل دمًا هلعا، وخشوعًا من أن يكون قد دخل فيهم، فلم يقلِ القرآن: "أوجهٌ يومئذ خاشعة"، وإنّما قال: "وجوهٌ"، وهو أمر يدعو إلى وِقْفة حازمةٍ مع النفس، وحُسْنِ النظر في كلِّ قولٍ منها، وفعلٍ، والتأنّي عند عملِ المعصيةِ أن يدخلَ تحتَ معناها، وينضم إلى فحواها، ويكونَ من أتباعها، ومن الداخلين في مرماها، ومقصودها، وشباكها، وأوارها، ونيرانها الحامية، الحارقة، الخارقة.

و(خاشعة) اسم فاعل من الخشوع، وهو انخلاعُ القلب للأمر، واضطرابُ النفس من الهول، كأنّما تَسَمَّرَتِ الأجفانُ، فلا تطرف، وتوقَّفت العين عن الحركة، والغَمْضِ، والبريقِ، وتحجَّرت المُقَل عن الدوران؛ من شدة الخوف، والقلب نَخِبٌ هَوَاءٌ؛ من شدة القلق، والاضطراب، وكأنّه سينخلع من الصدر، والعين تنفلتُ من مقلتها؛ من هَوْلِ ما تراه يوم القيامة، من انكدار النجوم، وتفجير البحار، وتفتُّح السماءِ أبوابًا، وتنزُّل الملائكةِ أرسالا، وجَمْعِ الشمسِ والقمر في وقت واحد، وإبراقِ البصر، وحِدَّة النظرِ، ودُنُوِّ الشمس من الرؤوس، والغَرَق في العَرَق، والبشر على مرمى البصر، والملائكة، وأشكالهم المرعبة، وهم يسوقون الخلقَ إلى أرض المحشر، والناسُ باديةٌ كالسكارى، تترنّح هنا وهناك، وتميل يمنةً، ويسرةً كالشارب الثَّمِلِ، المملوءِ خَمْرًا، والمتمايل اضطرابًا، وسُكْرًا، وكلٌّ يفرُّ من كلٍّ، الأخ يفرُّ من أخيه، ومن أمه، وأبيه، ومن صاحبته، وبنيه، الجميعُ تَائِهٌ هنا، وهناك، لا يدري أينَ يذهب، وكلٌّ

يَذْهَلُ عن كلٍّ، حتى إنَّ كلَّ مرضعة تذهل عما (وليس عَمَّنْ) أرضعت، تظنه شيئا من الأشياء فتعبر بـ(ما) التي لغير العاقل عن وليدها العاقل؛ لذهولها، وذهاب عقلها، فهي تَدُوسُهُ بأقدامها، وقد تَبْقُر بطنه، وتُهَتِّكُ عينيْه، بل قد تفجِّر بطنه من ثقلها، وشدة لهثها، وهي لا تعلم أنّه رضيعها، وأنّه كان يلقم ثديها، وأنّه ابنها الصغير الذي هو جزءٌ منها؛ وذلك من هَوْلِ ما ترى، ومنْ أحداث الغاشية، وهي الطامة الكبرى، وهي الصاخة العظمى، نعم، بدأ يومُ القيامة!، يوم الحسرة والندامة، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلّا من أتى الله بقلب سليم، يوم عند ربك كألف سنة مما تعدون، بل مقداره خمسون ألف سنة[1].

والتعبير بالوجوه الخاشعة هو كناية عن هَوْلِ الصدمة، وانخلاعِ القلب، وتَعَبِ ذلك اليوم، وخطورة الحساب فيه، واتساع زمنه، وطوله، وارتعاب الخلق فيه، وارتهابهم، واضطرابهم، وبحثهم عن مأوى يؤويهم فلا يجدون، كما أنّ الخشوع يطلق على المذلة، كما قال– تعالى-:" وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل..."[2].

وكلمة: "يومئذٍ"، ما أقساها!، وما أشنعها، وأجلاها!، حيث تذكِّرُنا أننا الآن في يوم القيامة، دخلْنا في اليوم الموعود، والعذابِ غيرِ المحدود، والزمنِ الممدودِ، وقد حُذِفَتْ هنا جملةٌ كاملةٌ، هي جملة المضاف إليه؛ لأنّ الظرف(إذ) هنا مُنَوَّنٌ؛ إشعارًا بأنّ المضاف إليه قد حُذِفَ، وعُوِّضَ عنه بالتنوين، وراحتِ الجملةُ هي الأخرى في حذفٍ، وتِيهٍ، وضياعٍ واضطرابٍ، وحُذِفَتْ، ولا تدري أنّها قد حُذِفَتْ من شدة الهلع، وجاء التنوينُ عِوَضًا عنها، والتقدير قبل الحذف:" وجوهٌ يومَ أنْ تُحدِّثَ الغاشيةُ حديثَها، وتنقلَ أعمالَها، خاشعة، عاملة، ناصبة، تصلى نارا حامية".

فقد حقَّق حذفُ الركنِ الأول، والحذفُ في جملة المضاف إلى الظرف(إذ)، وحَذْفِ الموصوف: (أي وجوه يومئذ وجوهٌ خاشعة، والتعبير باسم الفاعل: (خاشعة) وهو

(١) ينظر تفسير البغوي ٨/ ٢٩-٢٩٥، والبحر المحيط ،١٠/ ٤٦١-٤٦٢ .
(٢) سورة الشورى ، الآية : ٤٥.

من الفعل اللازم: (خشع)، دون للمجيء بفعل مُتَعَدٍّ- ما يشعر بالصمت التامّ من الكلمات، الذي هو صَمْتٌ حقيقيٌّ من الناس، وانشغالُ كلٍّ بذاته، وتخلّيهِ عن كلِّ معارفه، وأقاربِه، وكأنّه لا يعرفهم، ولا يعرفونه، حتى عن نفسه، والاقتصار على الوجوه دون بقية الجسد، كأنَّ بقية الجسد قد ذاب، وراح، وضاع، ولم يبق إلّا الوجه الذي نتعرف منه على صاحبه.

كما أنّ التعبير باسم الفاعل: (خاشعة) دون غيره من الأوصاف ما يبيِّن حدةَ النظر، وطولَ الصمتِ، وهَوْلَ الموت، وفَدَاحَةَ المصير، كما أن التعبير بالاسم فيه ثباتُ المعنى، واستمرارُه، على العكس من استعمال الفعل الذي يدل على الحركة، والتغيير من حال لحال، والانتقال من وضع لآخرَ.

كل ذلك بين لنا خطورة اليوم، وشدة الهول، واتساع دائرة الخوف، والوجل[1].

الآية الثالثة: "عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣)".

إنّه استمرارٌ في الحديث عن ماهيَّة تلك الوجوه، ووصْفِ أصحابها، ورَسْمِ حَيْرَتِهِمْ، واضطرابهم، وخوفهم الشديد، فهي وجوه عاملة، ولم يقلُ ما الذي تعمله، وجاءت بالنكرة؛ لبيان كثرة أعمالها، وجاء الفاعل (لاسم الفاعل) ضميرا مستترا مَخْفِيًّا، لا وزنَ له كأصحابه لا قيمة لهم، فهم لا يرون من صِغَرِ، وحقارةِ أعمالهم التي وهبوها لغير الله، بل للصد عن سبيل الله، والتعبير بـ"عاملة"، أي يظهر لك أنها كثيرة العمل، دؤوبة، واسم الفاعل "ناصبة" الذي يعني أنها قد أتعبتْ نفسَها تعبًا شديدًا، فالنَّصَبُ هو شدةُ العمل، وكثرته كثرةً تُضْعِفُ البدن، وتجعله مُهْتَرِئًا كَلِيلًا، وهو كناية عن العمل، ومتابعته، واستمراره، وثباتِ أصحابِه عليه، وعدم مَلَلِهِمْ، والفاعل كذلك (في اسم الفاعل) هنا مستترٌ؛ لَمَهَانته، وعدمِ رؤيتِه، وهو كناية عن مهانة أصحابِه العاملين، الناصبين، المتفانين فيه، وكلُّ عملهم قد راح هباءً منثورا، لا قيمة له، ولا وزنَ، إمّا لأنّه عملٌ ضدُّ الشرع، ويناقض التكاليف، وكان

(١) التحرير والتنوير ، ٣٠/ ٢٩٥-٢٩٦، والبحر المحيط ،١٠/ ٤٦١-٤٦٢.

عملا صادًّا عن سبيل الله، وإمّا أنّه كان يعملُ لغيرِ وجه الله، وكان عملا للرياء، والسمعة، وتحقيق الشهرة، والانتشار؛ ومن ثم قال الله – تعالى-: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ سورة الفرقان، نعم، إنّه عملٌ لم يُبْتَغ فيه وجهُ الله، وكان عملا مَقيتًا، لا شيءَ فيه لله، بل كان صاحبُه أحدَ أعوانِ إبليسَ في الصَّدِّ عن سبيل الله، وهو ضدُّ الدعاة، وأهلِ الله؛ حيث كان يقف حَجَرَ عثرةٍ أمام عمل الصالحين، ويؤلِّب عليهم الخلقَ، ويَتَّهِمُهُمْ بأنهم سببُ التخلف، وهم أسُّ الفساد، وأصل البلاء في المجتمع، مع أنّهم طاهرون، مطهَّرون، دعاة، لا قضاة، وأنّهم لا يُحِبُّون أوطانَهم، ويسعون لهدمِ حضارته، وهم مِعْوَلُ هدمٍ يجعلون الناسَ متطرفين، ويحملونهم على الصلاة، وحياة المسجد، وفي ذلك ضياعٌ للجهود، وتدمير للسواعد، واختزانٌ للطاقات داخلَ جدرانِ المساجدِ، والمعابد، وعَدَمِ تَرْكِ السواعد لتعملَ، وتنتجَ، واتهامٌ كثيرٌ مما نحن نعرفه، إذا أحب أحدٌ أن يؤلِّبَ الناسَ على داعية مَّا، ويحملهم عليه؛ حتى ينفضَّ الناسُ عنه، ويتهمُ أهلَ الصلاح بالطلاح، وأهلَ الجدِّ، والاجتهادِ بالكسل، وأنهم رَهْنُ المياضئ، والصلوات، ولا يقدّمون شيئا يُذْكَرْ لِأُمَّتِهِم، وجُلُّ حياتهم بين الوضوء، والصلاة، وهم قابعون بين جدران المساجد، وأقبية المعابد، وأَوْلَى بهم السجونُ، والتعذيبُ؛ ليخرجوا مما هم فيه من الوهم، وحياة الآخرة، والدَّرْوَشَة، ويصفهم بأوصافٍ شنيعة، ويسمهم بسمات فظيعة[١].

الآية الرابعة: " تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً (٤) ".

هذا وصفٌ آخرُ لتلك الوجوه، عَاجَلَهُمْ به، وهو وصفٌ يرشِّحُ، ويؤكِّدُ ما سَبَقَ من أنَّ أعمالهم كلَّها لم تكن لوجه الله، بل كانتْ عونًا للشيطان، وسندًا للأبالسة، أسيادهم الذين يصدون الناسَ عن سبيل الله ، ثم فقد جاء بالنتيجة لتلك الأعمال في أنَّ أصحابها– رغم أنّها عاملة ناصبة– إلّا أنّها تصلى نارًا حاميةً، والتعبير

(١) ينظر : إعراب القرآن وبيانه للدرويش ، ١٠/ ٤٥٨-٤٥٩، وتفسير الجلالين الميسر ، ٥٩٢، والكشاف للزمخشري ، ١١٩٧.

بالمضارع :"تصلى" يفيد الاستمرار، وهو أنّهم في اصطلاء دائم في النار، والتعبير بـ"نارًا" المُنكَّرة يعني تنوعَها، وتعددَها من بيضاءَ إلى حمراءَ، إلى سوداءَ، كلُّ أنواع النار يصلونها، كما أنَّ التعبير بـ(حامية) كناية عن شدتها، واتساع حَرْقِها، وارتفاع حرارتها، فهي حامية، من شدة حَطَبِهَا، وعلوِّ نيرانها، وارتفاع درجة حرارتها التي لا يُوجَد مقياسٌ لقياسها، فالمقياسُ سينفجر؛ لأنّها في احتراقٍ متصاعِدٍ، وفي ارتفاع متواصل، فلا تقفُ عند حَدٍّ، ولا يستطيعها، ولا يطيقها أي أحدٍ[(١)].

والجملُ قصيرةٌ، متتابعة، تفجأ تلك الوجوهَ في كلِّ آية بما يُرعِبها، ويُرهِبها، ويُدخِل عليها الخوفَ الشديد، والرعب الأكيد، كما أنّ الحذوفَ المتتابعة من أولِ الآيات تبيِّن الخوف، والرعب حتى في الجمل، لا في المفردات فقط، حتى إنَّ أجزاءً كبيرةً، وأركانًا أساسيةً منها قد حُذِفَتْ دونما شعور، ولا انتظار لعودتها، فالنجاةَ النجاةَ بما بقي من الجملة، حتى لو حُذِفَتْ كلُّها اِرْتِعَابًا، وارْتِهَابًا، وهلعًا، واضطرابًا، وقد رأينا هذا الحذف في معظم آياتها، وله في كل موطن منها دلالاته، ومعانيه، ومضامينه، ومراميه[(٢)].

الآية الخامسة:" تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥) ".

هنا ورد الفعل مبنيًّا لما لم يُسَمَّ فاعله (مبنيا للمجهول على رأي بعضهم)؛ حتى نعلم تعدُّد الساقين، وكثرتهم من ملائكة الله، وزبانية جهنم، والفعل المضارع يفيد الاستمرار، أيْ أنّ سقياها من العين الآنية- وهي العين الحارة الحارقة- سَقْيٌ متواصل، وأنّ عذابَ الشرب متتابِعٌ، كما أنّ بناء الفعل لما لم يُسَمَّ فاعلُه فيه امتهانٌ كبير لها؛ حيث إنّ ضميرها استتر؛ احتقارًا لأصحابها، وامتهانًا لكرامتهم، ففي عارضِ الحذفِ بالبناء لما لم يُسَمَّ فاعلُه، ومجيء نائب الفاعل مستترًا، واستعمال المضارع- ما يبيِّن تعاستَهَا، ودوامَ عذابِها، واستمرار شقائها، وتجرُّعها غصصَ

(١) التحرير والتنوير ، ٣٠/ ٢٩٦-٢٩٧ ،وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ السعدي ، ٩٢١-٩٢٢ .

(٢) تفسير البحر المحيط ، ١٠/ ٤٦١-٤٦٢.

الماءِ الحارِّ المغليِّ، المتواصلِ على ما فيه من حَرْقِ الحَلْقِ، والفم، والأمعاء، والبطن، كقوله- سبحانه-:"كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها؛ ليذوقوا العذاب"، "ولا يخفف عنهم من عذابها من شيء"، ونحو أقسى آية على أهل النار التي هي قوله- تعالى-:" فذوقوا فلن نزيدكم إلّا عذابا"(١).

و"من" هنا بمعنى الإلصاق، أو الوسيلة أي تُسْقَى بها، أي تُسْقَى بعين آنية، نحو: "عينا يشرب بها المقربون"، أي يشربون بالعين كلها كاملة، لا منها؛ كناية عن الكرم الشديد، وكثرة الشُّرْب بكل ألوانه، دونما خوف انتهائه، ووجل غيضه، وذهابه، أو أنّها تفيد ابتداء الغاية المكانية على أصل معنى من، أي ابتداء شربِها من تلك العين المغلية:"...وإن يستغيثوا يُغَاثُوا بماء كالمهل يشوي الوجوه، بئس الشراب وساءت مرتفقا"، وتنكير (آنية) يفيد شدة حرارتها، ويقال: "أَنَى السائلُ: بَلَغَ غايةَ الحرارة"-(٢)، فالتنكير يبين علوَّ درجة الغليان، وتدفُّقَ بخارِها، وارتفاعَ درجةِ بخارِها عاليًا، كأنما هي تتقطع من علو حرارتها، وهم يشربون منها، فتقطِّع أمعاءَهم، فالعينُ النكرة، وصِفَتُهَا المنكَّرة رَسَمَتْ لنا أمرًا فظيعًا عندما نتخيله، ولابد من أن تشربَ، مُرْغَمَةً، وسيحوجها العطش أن تشرب شربا كشرب الهيم، وهي الجِمَالُ العِطَاشُ عندما تضع فمها تتركه فترة، يَعُبُّ عَبًّا من الماء؛ لأنّه فرصةٌ لها ، وقد لا تجد لها فرصة أخرى، فهي تشرب بكثافة، وتأخذ لمستقبلها، وتخزنه في جسدها، يمكن أن تَجْتَرَّهُ ثانية عندما تحتاج إليه – على عادة الهِيمِ- فهي صورة خطيرة، وذات دلالات غزيرة، لو تأملها القارئ لَمَا فعل شيئا من المعصية، ولَمَا اقترف أمرًا من شأنه أن يعرضه لتلك العين الآنية، ولا للشربِ من أوارها الفتَّاك، وحرارتها القاتلة،، وأبخرتها المفنية، ونارها المقطِّعة للحلوق، ونياط القلوب، والأفئدة. وفي تفسير الوسيط للواحدي، قال: "آنية :أي بلغت أناها – بفتح الهمزة

(١) التحرير والتنوير ، ٣٠/ ٢٩٧-٢٨٩، والكشاف للزمخشري ، ١١٩٧.
(٢) كما في المعجم الوسيط مادة "أ ن ي" ، ١/ ٣١.

وكسرها-، وهوغاية حرها"(١). كل تلك هي أوصاف الوجوه، وهي القسم الأول من قِسْمَيِ الناس يوم القيامة، يوم حضور الغاشية، وبدء مراحلها العاتية، ومنازلها الدامية.

الآية السادسة: " لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (٦) ".

هنا نفيٌ، واستثناء، أو أسلوب قصر باستعمال النفي بالفعل الناسخ: "ليس"، وأداة الاستثناء:(إلّا)، أي هو قصر موصوف على صفة على سبيل الحصر، والقصر، والتأكيد، قصر الضريع عليهم، أي أنّهم لا طعام لهم مطلقًا مهما حاولوا البحث عن غيره، فلا يجدون إلّا هذا الضريع، وعارض التقديم في متعلق خبر الناسخ، وهو شبه الجملة:(لهم) يبين أنّ هذا لا يوجد غيره، وأنّه مخصَّص لهم، لا يجدون غيره، وتنكير "طعام" يأتي لقلته، وضعفه، وهوانه، وندرته، وعدم إفادته، ولا مِيرَةَ لهم من ورائه، ومجيء حرف الجر: (من) صلة (أو زائدا على رأي أهل البصرة)، فيه نفيٌ قاطعٌ بأنّه لا طعامَ غيرُه، ولا أكلَ سِوَاهُ، ولو بحثوا في كلِّ مكان، فلن يجدوا سواه، والضريعُ هو نباتُ الشِّبْرِق، والسُّلَّاء، والعَوْسَج الرطب، وهو كناية عن نحافته، وضعفه، وعدم إفادته للجسم، على أنّ الطاهر بن عاشور ذكر أنّ (من) للابتداء، أي ليس لهم طعام إلّا ما يخرج من الضريع...، ووصفه بأنه لا يسمن ولا يغني من جوع؛ لتشويهه، وأنه تمخض للضر، فلا يعود على آكليه بسمن يصلح بعض ما التفح من أجسادهم، ولا يغني عنهم دفع ألم الجوع، ولعل الجوع من ضروب تعذيبهم، فيسألون الطعام، فيطعمون الضريع، فلا يدفع عنهم ألم الجوع"(٢)، والآية كلها كناية عن احتقارهم، وامتهانهم، والتهكُّم بهم، فهم أولئك الذين ما جاء في بالهم- وهم في حياتهم- طاعةُ ربهم، أو العملُ لهذا اليوم الرهيب، الرعيب، وهو

(١) ينظر التحرير والتنوير ، ٣٠/ ٢٩٧، والكشاف ١١٩٧، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ، ٩٢٢، والبسيط للقرآن الكريم- تأليف لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية،١٠/ ١٨٨٤.
(٢) التحرير والتنوير ، ١٠/ ٢٩٧-٢٩٨.

كناية كذلك عن نسيانِهم، وذهابِ كرامتِهم، فهم يَرْعُونَ في جهنم كالذي كانت ترعاه الإبل في الدنيا، ولكنْ، يا ليته كالذي كانت تَسُومُهُ البهائمُ، وتأكله الإبلُ، إنّما هو طعامٌ واحدٌ، عبارة عن أشواك جافة، قاتلة، مُهتّكَة للحلق، ومُقَطِّعة لِلِّسان، ولا فائدةَ تُرجَى منه في الأصل ، اللهم إلّا العذابُ الكامل في الفم، والحلق، والمعدة، والأمعاء، وهذا النفي، والاستثناء مما يُخْزِنهم، ومما يدخل عليهم اليأس الكامل، والقنوط التام، ويشعرهم بالخيبة الدائمة، والحسرة المتواصلة، وقد ذكر الواحدي في الوسيط معناها، وما ترمي إليه من مقصد وبلاغة، فقال:"...وإنّما هو من شوك، والشوك مما ترعاه الإبل ، وتقبل عليه، وهذا نوع تعرض عنه الإبل، ولا تقربه، فليس له من منفعة الغذاء شيء، وقيل: إنّه طعام عده يتضرع إلى الله- تعالى، ويطلب الخلاص عنه، وليس فيه منفعت الغذاء أصلا، وتنكير جوع للتحقير، أي لا يغني من جوع ما"[(١)].

الآية السابعة: " لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (٧) ".

تكرَّر النفي، وكلُّ حرف منهما يفيدُ فائدةً جديدةً مع فعله الذي سَبَقَهُ، فالطعام الذي هو الضريع الجاف، النحيف، ذو الأشواك، وهو لا يُسْمن، أي لا يقدم لهم شيئًا يُذكَر من الأكْلِ، يقتاتون منه، فلا يشبعهم، ثم هو لا يُغْنِيهم عن طلب الطعامِ، فهم في طلبٍ له مستمرٍّ؛ لأنّه لا يكفيهم، ولا يُغنِي بطونَهم لنحافته، وعدم وجود أيِّ شِبَعٍ منه، ومع ذلك لا يُوجَد غيره، فهم في تعب شديد، وجهد جهيد، وجوع مديد، ويحتاجون إلى العين الآنية؛ لأنّ الضريع جافٌّ، ويتطلب لنزوله الماءَ، والماءُ هنا هو الماءُ الذي يغلي، وتتقطَّع منه نياطُ القلب، وأجزاءُ البطن، وأمعاؤها، ومكوِّناتُها، وهم فيه خالدون، لا خروج منه، ولا تغيير له، إلّا إلى أشدَّ منه، وأكثر إيلامًا، وأعمقَ امتهانًا، وأشد تهكما، واحتقارا، فهو كناية عن طول عذابهم، وتواصل

(١) تفسير الوسيط للقرآن الكريم- تأليف لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية ، ٣٠/ ١٨٨٦ ، وتفسير الجلالين الميسر ، ٥٩٢، وتفسير البغوي ، ٨/ ٤٠٧-٤٠٨.

تعبهم، واستمرار آلامهم، وتعدُّد أماكن إيلامهم، وإيجاعهم؛ ومع ذلك ليس لهم إلّا المواصلة في هذا الهمِّ الثقيل غيرِ المتحمل، والذي يفيد الألمَ، والعجب في الوقتِ نفسه أنّه لابد لهم منه، فهو لابد منه، ولا مفرَّ، ولا مهربَ عنه(١).

هنا توقَّف وصفُ الصنف الأول من الصنفين، والوجوه الأولى من الأوجه، وهي أوجه الكافرين، العاصين، المتفلّتين من كلِّ خلق، ودين، الذين أضاعوا حياتَهم كلَّها، وما كانوا عند مطلوبِ دينهم، ولا وَقَّرُوا خُلُقًا، ولا احترمُوا فضيلةً، فكانت تلك مآلاتِهم، وقد عَبَّرَتِ التراكيبُ القرآنية خير تعبير عن مآلهم، وحالهم لمن كان له قلبٌ، أو ألقى السمع، وهو شهيد، وهو تحذير لكلِّ نفس في هذا الكون من أن تصلَ إلى تلك العاقبة الكؤود، وتنهل من هذه العين التي تسعى لجعل كلِّ شيء فيها بالمفؤود، وتدمِّر كلَّ حَيٍّ، وموجود، ولا يتحملها أيُّ كائنٍ، ومولود.

وقد ذكر الدرويش في العبارة القرآنية لطيفة بلاغية، لكنها أولى بالذكر هنا؛ لبيان صعوبة هذا الطعام، قال:" في قوله: "لا يسمن ولا يغني من جوع" فن التتميم...، فقوله: (لا يغني من جوع) جملة لا يمكن طرحها من الكلام؛ لأنّه لما قال: "لا يسمن" ساغ لمتوهم أن يتوهم أنّ هذا الطعام الذي ليس من جنس طعام البشر انتفت عنه صفة الإسمان، ولكنْ بقيتْ له صفة الإغناء، فجاءت جملة: (ولا يغني من جوع) تتميمًا للمعنى المراد، وهو أنّ هذا الطعام انتفتْ عنه صفة إفادة السمن، والقوة، كما انتفت عنه صفة إماطة الجوع، وإزالته، وجعله بعضُهم من باب نفي الشيء بإيجابه، على حد قول امرئ القيس: "على لاحب لا يُهْتَدَى بمناره"، أي أنه لا منار له أصلا، وكما تقول:" ليس لفلان ظلٌّ إلّا الشمس، تريد نفي الظل على التوكيد، وليس ببعيد، والأول أرصن، وأبعد عن التكلف"(٢).

(١) تفسير الوسيط والبسيط للقرآن الكريم– تأليف لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية،٣٠/ ١٨٨٦، وتفسير الجلالين الميسر ، ٥٩٢، وتفسير البغوي ، ٨/ ٤٠٧–٤٠٨، والكشاف، ١١٩٧.

(٢) إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين الدرويش ، ١٠/ ٤٦١.

أمّا عن الصنف الثاني من أوصاف تلك الوجوه، فهو وجوه المؤمنين، وهي أوصافٌ كريمة، يتمناها، ويرجوها كلُّ عاقل، عاملٍ، ناصبٍ قدمَيْهِ في طاعة الله، واعٍ، حصيفٍ بمنازل الآخرة، وأعمالِ يومِ القيامة، ويقرأ القرآن بكل وعيٍ، وتعقُّل، ويعمل لهذا اليوم ألفَ حساب، فمع التحليل النصي لأوصاف تلك الوجوه، والوقوف أمام حروفها، وبناها، وتراكيبها؛ حتى يظهر الجلال، ويتضح الكمال، ويُكْشَفُ الجمال.

الآية الثامنة: " وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨) ".

بدأت الآيات وصف وجوه الصنف الآخر، وهنا عارضٌ الحذف في الركن الأول من أركان الجملة الاسمية، والتقدير: "وتلك هي الوجوه المقابلة، أو الوجوه المضادة"، وفي كلمة :"وجوه" مجاز مرسل علاقته الجزيئة؛ حيث أطلق الوجوه، وأراد أصحابَها، وعبَّر عن أشرف مكانٍ في الإنسان، وهو الوجه، وهو مجمع الأحاسيس، ومكمن المشاعر الظاهرة، ، وهو كناية عن البهجة وحسن المنظر، وتنكيرها يشعر بكبر حجمها، وتعدُّدها، وتنوُّع أهلها، وفي قوله: "يومئذٍ" عارض بالحذف، أي يوم تقع الغاشية، ويأتيك حديثُها"، فحذف جملة المضاف إليه؛ ليعجل بفرحتهم، ولا يُطيلَ بُعْدَ النعمة عنهم، وهم مَنْ كانوا يسارعون في طاعته، ويتعجلون عبادته، ويُدِيمون ذِكْره، ويطيلون شكره، فحُذِفَ؛ لبيان مكافأتهم، والتعجيل بإدخال الفرحة عليهم، وقوله: "ناعمة" اسم فاعل يفيد ثبوت الصفة، واستمرارها، وقدم الظرف(يومئذ) على متعلقه؛ لبيان العناية بذلك اليوم[1]، و(ناعمة) كناية عن النضارة، والإشراق، والبهجة، وحسن المنظر، وسَعَةِ النعمة التي هم فيها، ويُبْدُون عليها، والنعومةُ أثرٌ، ونتيجةٌ لتلك الحالة النفسية التي يُوجَدون عليها، فالنفسُ عندما تكون مرفَّهَة، سعيدةً، ينير وجهها، ويسعد قلبها وقالبها، ويبتهج ظاهرها، وباطنها، وتشعر بمدى عزها، وسعة ملكها، وجلال ما ترتكن عليه من ثراء، ونعمة، وسعة، ومنّة، فالنعمة

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٣٠/ ٢٩٥.

كناية، ومجاز عن العز، والعيش الرغيد، والفضل المَزِيد، كما وصفها في آية أخرى، حيث قال:" وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة"، والفصل بـ(يومئذ) فصلٌ مريح حيث إنّ النضارة عليهم تكون في يوم تكلح فيه كثير من الوجوه، وتكون مقطَّبة بائسة، أكلها الحزن، كما أنّ تقديم الظرف(يومئذ) لبيان أهميته، ومدى العناية به، وإبراز مكانة هؤلاء، عندما يرى مقام ودركة الصنف الأول ذي الوجوه البائسة اليائسة المقطبة العابسة[١].

وهي كذلك كناية عن أهل الإيمان، أهل الله، وخاصته، الذين وقَّروا ربَّهم، وعظموه في حياتهم، وقدسوه في مشوار دنياهم، وحبسوا أنفسَهم، وأنفاسهم على رضاه، واستنزال عفوه، ونُعماه، وكامل عطائه، ورُحماه، فاليوم نُضِّرَتْ منهم الوجوهُ، وسعدت القلوبُ، وانتعشت الأرواح، وعلت الفرحة في الأفئدة، وتواصلَ الشكرُ على الألسنة.

وقد ذكر نحوا من هذا الطاهر بن عاشور، حيث قال: "وأوثرت الوجوه بالكناية عن أصحابها هنا، وفي مثل هذا المقام؛ لأنّ الوجوه تنبئ عن حال أصحابها؛ إذ الوجه عنوان عما يجده صاحبه من نعيم أو شقوة، كما يقال: خرج بوجه غير الذي دخل به"[٢].

نفسهم على رضاه، واستنزال رحمه، وعفوه، ورضاه

الآية التاسعة: " لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) ".

لا يزال الوصف مستمرًا، فهذه الوجوه كانت تقدم عملها لله، وهي راضية كل الرضا؛ لأنّها تعيش لربها، وبه، وتسعى لرضاه، ففيمَ الغضبُ، ولِمَ الحزنُ، والنكد؟!، فهي أي تلك الوجوه، حيث ربط الضميرُ بين الجملتين برباط متين، وجاء التقديم

(١) ينظر تفسير الوسيط والبسيط للقرآن الكريم- تأليف لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية، ٨/ ١٨٨٨، والتحرير والتنوير، ٣٠/ ٢٩٥، والكشاف، ١١٩٧-١١٩٨.
(٢) ينظر : التحرير والتنوير، ٣٠/ ٢٩٥ .

لشبه الجملة على موصوفه المنكر: (لسعيها راضية)، فتحول بالتقديم من الصفة إلى الحال؛ لأنّ مِنْ مواضع مجيء صاحب الحال نكرةً أن تتقدم عليه الحالُ، كما في نحو قول الشاعر:

لِمَيَّةَ موحشًا طللْ ***** يلوح كأنه خِلَلْ

فـ(موحشا) حال من (طلل)؛ لتقدم الصفة على الموصوف، وأصل الجملة قبل التقديم: "لمية طللٌ موحشٌ" برفع:(موحش)، لكنه لما تَقَدَّمَتِ الصفةُ على موصوفها استحالتْ حالا، فـ(لسعيها) حال من (راضية)، والسعي هو كل الجهد الذي يقدمه المرءُ لاهثا وراءَ القبول، كما في قوله- تعالى-:" وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى"، ونحو قوله الشريف في السَّيْرِ إلى الصلاة في المسجد جماعةً:"... فلا تأتوها وأنت تَسْعَوْنَ، وَأْتُوهَا، وأنتم تمشون، وعليكم السكينة والوقار..."، وفي قوله: "راضية" كناية عن السعادة، وفرحة القلب، ونضارة الروح، فهي عندما رأت نتيجة سعيها، ومآل عملِها أمستْ لا تسعها الدنيا من فرحتها، ولا الكون – على اتساعه- من رضاها، وسعادتها، كما أن تنكير: "راضية" يُوحِي باتساع مناحي الرضا، وأسباب السعادة، فرضاها متعددٌ، وفرحُها متنوعٌ، وأصنافُها لا تُحْصَى، وفرحتُه لا تُوصَف، ونضارتُه من الرضا، وشموله لا تُتَخَيَّل، ولا يمكن أن تُتَصَوَّرَ.

واسم الفاعل:(راضية) يحمل النية، فهي، وهي فرحة، يخرج الرضا من حناياها، وينضح من كل جوانبها، وأركانها، وزواياها، ويملأ كل مكان في طواياها.

فالعيشة نفسها، وهي اسم هيئة- لها قلب يرضى، وفؤاد يحب، وذاتٌ تعي، وتنكير كل من :" وجوه- ناعمة" فيه من إطلاق الخيال، وبعد المنزلة الكثيرُ، والكثير، فهي وجوه ناعمة تتجمل لحظة بلحظة، وتزداد ألَقًا ثانيةً بثانية.

وفي ناعمة معنى النضارة والنعمة، حيث جرت عليهم نضرة النعيم، فنضرت أبدانهم، واستنارت وجوههم، وسروا غاية السرور، كما ذكره السعدي في[1]، وعلل

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ،٩٢٢.

الزمخشري رضاها عن سعيها بقوله: "رضيت بعملها لما رأت ما أدَّاهم إليه من الكرامة والثواب"[١].

الآية العاشرة: "فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠)".

هنا عارضٌ بالحذف في ركن الإسناد الأول في الجملة الاسمية، وهو المبتدأ، وبقي شبه الجملة المتعلق بالخبر: "في جنة عالية"، والتقدير: تلك الوجوه مستقرةٌ، متمكِّنةٌ، مغروسةٌ، داخلةٌ، مُمَتَّعَة، سعيدةٌ في جنة عالية"، وحُذِفَ ركنُها الأول؛ تعجيلا بالمسرة، وتسريعًا بإدخال الفرحة، وعبر الزمخشري بـ"عالية" قال:" من علو المكان أو المقدار"[٢]، و"مكانة ومكانا" كما هو عند أبي حيان[٣]، وحرف الجر: (في) يفيد الظرفية، فتلك الوجوه موجودةٌ في وسط الجنة، وفي كبد السعادة، وفي رَبَضِ الفرحة، وفي فؤادِ النعيم، وتنكير: (جنة) يفيد سُمُوَّها، ورفعةَ مكانِها، وعُلُوِّ مقامها، ثم وُصِفَتْ بعد كلِّ هذا بأنها "عالية"، وهو كناية عن غاية ما هي فيه من السمو، والارتفاع: مَكَانًا، ومَكِينًا، وتنكير كلٍّ من (جنة، وعالية) يجعل الخيالَ يتوقف عن الإطلاق؛ لقلة باعه عن تصوُّرها في علوها، وجمالها، وجلالها، وكمال أصحابها، وكما أنّ التنكير فيهما؛ للتعظيم، وبيان مكانة أهلها، واعتلائهم قمةَ الجنة، ورأسَها الجليل، وتَقَمُّمَ أعلى مقامٍ فيها، وتوسد أعلى مكان فيها، وهو أجملُ من كل مكان[٤].

الآية الحادية عشرة: "لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (١١)".

وهنا الجمال كله؛ حيث تعطينا الكلمات المهموسة بحروفها الرقيقة السين والياء والألف المَدِّيّة التي تكررت؛ لتبين مدى الهدوء، وراحة البال، وسعادة القلب، ونشوة الفؤاد ؛لأنّ أهلها لا يسمعون فيها لاغيةً، وهي الكلمة النابية التي لا معنى

(١) الكشاف ، ١١٩٧.
(٢) الكشاف ، ١١٩٨.
(٣) البحر المحيط ، ١٠/ ٤٦٣ .
(٤) ينظر تفسير الجلالين الميسر ، ٥٩٢ ، وتفسير التحرير والتنوير ،٣٠/ ٢٩٩، والبحر المحيط،١٠/ ٤٦٣.

لها، ولا دلالةَ نافعةٌ من ورائها، فكما كانتْ حياتُهم في دنياهم جادةً، لا لغو فيها، ولا تأثيم- فهم كذلك في جنتهم في سعادة جادة، لا يسمعون ما يعكِّر صفوهم، ولا يتفوَّهون بما يُحزِن آحادَهم، ولا يدخل الغَمَّ عليهم، وتنكير (لاغية) يفيد بأنّ أقلَّ لغوٍ فيها لا يكون، ولا يمكن أن يُوجَد واللغو ليس من سمات أهلها، ولا من أوصاف نزلائها، فكلهم كبارٌ، وكرامٌ، وموقرون، أبرارٌ، ويعرفون سعةَ عطاء الله، فهو لا يتكلمون إلا بما يُسْعِدُ فقط، وكلامهم هادئ لا رفع فيه لصوت، ولا نشاز فيه، ولا ضجيج، كما أنّ عين يمكن أن تحمل على اسم الجنس، أي عيون جوار كما ذهب إليه أبو حيان، وكونها منكَّرة يفيد تنوعَها، وتعدَّد أوصافها[1].

واستعمال الفعل المضارع:(لا تسمع) يفيد استمرار الهدوء، واتساع وقته اتساعًا كبيرا، فهم سعداءُ بما فيها من نعيمٍ، ولا وقت معه لسماع اللغو، ولا زمانَ لإضاعته في الهوى، وعدم النفع، والاستهزاء، فالجميعُ في شُغُلٍ فاكهون، متنعِّمون، فرحون، لا يبغون عنها حِوَلًا، ولا يرومون عنها بديلا، وتنقلا، ولعل قراءة: (لا تُسْمَعُ) فيها لاغية، أيْ من غيرهم، ولا منهم، فبناءُ الفعل لما لم يُسَمَّ فاعله يُوَسِّعُ دائرةَ الهدوءِ، سواءٌ منهم، أو من القائمين على خدمتهم، كما نقول في الفنادق الراقية:" فنادق خمسة نجوم، فيها التعامل فوق الراقي، والطلب يُلَبَّى في الحالِ دونما نقاشٍ، ولو تعدَّد، ومن غير إعادةٍ له مرةً أخرى: "كن، فيكونُ"، فهي خدمة ملائكية، لا نُجُومَ تسعُها، ولا وصفَ من أوصاف الدنيا يليقُ بها، إنّما أوصافها أخروية، وهي ربانيةٌ فوق الخيال، ودونها كلُّ خيال: "... فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر"، حتى ما يخطر على القلب هي فوقه، وهو دونها.

والنفي بـ(لا) نفيٌ في المستقبل، فهي في حالة هدوء تامٍّ، لا سماع فيها لكلمة دون المستوى، وخُلِقَتِ الجنةُ لتمام الراحة، وسعة الفرحة، وكمال السعادة، وجمال النعمة، وجلال المتعة، ويكفي أنها من صنع الله- سبحانه-.

(١) البحر المحيط ،١٠/ ٤٦٣ .

الآية الثانية عشرة: " فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) ".

في تلك الآية عارض التقديم؛ حيث تقدم متعلق الخبر، وهو شبه الجملة: "فيها" والتقدير:" عين جارية مستقرة، ودفاقة، ومتفجرة بالمياه الصافية فيها، والحرف (في) يدل على امتدادها في الجنة، وانغمارها، ووصولها إلى كل شبر فيها، وهو أمر يدفع إلى الفرحة، والسعادة؛ حيث إنّ المياهَ جعل الله منها كلَّ شيء حي، وأمّا عن مياه الجنة فَحدِّثْ عنها، ولا حرج، فهي مياه أخروية، لا تعرف مشاكل مياه الدنيا، وما تتطلبه من مرشِّحات، ومنقِّيات، وطارداتٍ للحشرات، وقاتلاتٍ للميكروبات، ونحوها، إنّما هي مياهٌ أنقى ما تتخيَّل، وأصفى ما تتأمَّل، إنها مياهٌ صُنِعَتْ في الآخرة على عين الله، وفيض فضله للمؤمنين، وأُعِدَّتْ لهم إعدادًا خاصًّا، وأُمِدُّوا بها إمدادًا، ثم إنّ التنكير لها يدل على علو شأنها، ومجيئها على أدقِّ ما تكون المواصفات الرائعة، والعيون النافعة لها، كما أنّ تنكيرها هو كناية عن تعدد منافعها، واتساعها، وشمولها لكلِّ ألوان الفوائد التي تُتطلَّبُ للمياه الصافية، كما أنّ الوصف:(جارية) مما يزيدها حسنا، وجمالا؛ حيث الشَّلّالات، وجَرَيَانُ المياه يعني نظافة محلها، وكمال رائحتها، وجلالِ منظرِ صفائِها، واسمُ الفاعل يفيد ثبات الصفة، واستمرارها، فهي على الدوام، وأنّها جارية جريانا متتابعًا، واسم الفاعل يحمل النية، فهي في جريانها تَعِي مهمتها، وتُحسِن فهم رسالتها، وتنهضُ لوظيفتها، فهي مدرِكة أنّها ستظلُّ تجري بحبٍّ، ووَعْيٍ لتسقيَ أهل الله، وأحبابَها الذين أَجْرَوْا ألسنتَهم لله بالذكر، وكانتْ شلالاتُ الشكر تصدُر عنهم لربهم ليلَ نهارَ، صباحَ مساءَ، فكافأهم ربُّهم بعين ماءٍ جارية، لا تنفك عن الجريان، ولا تسلو عن الصفاء، والصوت الجميل المنعش الذي ينبعث من خريرها، وجمال شكلها في انصبابها، وكمال منظرها، وهي تتألق: جريانًا، وصوتًا، وبريقًا، وَوُدًّا، فهي تعمل في سعادة، وتتدفق في انسياب، وتجري في تألق، وتظهر في بريق، وتظهر في ألق، وضياء، والعين هنا اسم جنس، أي هي ذات عيون جارية، في غاية الكثرة، لا عين واحدة، وفي تفسير الوسيط للواحدي "... والتنوين

في (عين) للتعظيم، أو للتكثير، ووصف ماء العيون بالجريان للإشارة إلى أنّه ماء بارد صاف؛ لأنّ ماء العيون إذا كان جاريا يكون في العادة باردا صافيا، مع في منظر الماء الجاري من مسرة وارتياح"[١].

وتقديم شبه الجملة: "فيها عين جارية" هنا جائز للوصف الوارد بعد المبتدأ، وفي الأخير هي كناية عن سَعَة عطاء الله، واتساع فضله، حيث أجرى العيونَ الكبيرةَ المتعددة، والمتنوعة في كل مكان في الجنان: شكلا، وأداء، أجراها لأهله فيها، وخاصته، ولِمَنْ كانوا يستمرون في جريان ألسنتهم بالذكر، وشلالات أفئدتهم تقر، وتعترف، وتعلن الإقرار لله بالفضل، وتدين له بالولاء والشكر، فكان الجزاءُ من جنس العمل، وأكثرَ منه، فجرت سحاحة كما كانت ألسنتهم لا تتوقف عن ذكر ربهم، وشكره، وعبادته، وحسن طاعته، واستمرار رقابته، وجليل خشيته.

الآية الثالثة عشرة: " فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (١٣) ".

هنا عارضٌ بالتقديم أيضا، حيث تقدم متعلق الخبر(شبه الجملة)جوازا، وهو قوله : "فيها"، على المبتدأ الموصوف (سرر مرفوعة)؛ ليعجل ببيان سعة الفضل، وكمال العطاء، وتعدد النعماء التي عليها أهل النقاء، والصفاء، أهل الاصطفاء، والاجتباء، والسرر؛ إمّا أن يكون تعبيرًا حقيقيًّا، أي الأَسِرَّة التي ينامون عليها، فهي كثيرة، كثيرة، والتعبير بجمع الكثرة: "سُرُرٌ"، بوزن: "فُعُلٌ" يدل على الثراء، والترف، وكثرة النعم، وتعدد الفضل، وهو كناية عن كونها مرفوعة عن الأرض، أو رفيعة القدر، كثيرة الفرش، زيادة لهم في الراحة والنعيم، قالوا: "فإذا أرادوا الجلوس عليها تواضعت لهم، والجمع جمع كثرة، فلم يقل: "أَسِرَّة"، بوزن (أفْعِلَة)؛ لأنّه جمع قلة، لا يتناسب مع سعة الفضل، وكبر حجم النِّعَمِ، وعِظَمِ الآلاء، وإمّا أن يكون كناية عن الحور العين، اللواتي عُبِّرَ عنهن بالسُّرُر، وهي مرفوعة، كناية عن شدة

(١) انظر تفسير التحرير والتنوير ، ٣٠/ ٣٠١، وتفسير الكشاف للزمخشري ، ١١٨٩، الوسيط في التفسير والبسيط للقرآن الكريم- تأليف لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية، ٨/ ١٨٨٩.

الترف، وسعة الجمال، فهي مرفوعة، كما كانوا يرفعون ذكر الله في قلوبهم، وعقولهم، وأرواحهم، ونفوسهم، وتنكير: (سرر) يفيد كثرتها، وجمالها، وتنوعُّها: شكلا، وجمالا، ومضمونًا، وما عليها من محتويات الحرير، والدمقس، والستائر التي تتسمَّر في جمالها العيونُ، وتكاد العقولُ تُجنُّ من تجددها لحظة بلحظة، وقوله: "مرفوعة"- وهي اسم مفعول منكر- لا ندري كَمَّ الملائكة الذين يرفعونها، وكم منهم مَنْ يحملونها، أو هي كناية عن رِفْعَتِها، وكمال شأنها، وأنّ العين معها لا تطرف، ولا تريد أن تَطْرِفَ لجمالها الأخاذ، المتتابع، المتواصل في التغيير من أحلى إلى الأحلى، ومن الجميل إلى الأجمل، والآية فيها كناية عن سعة الامتنان، وكثرة الاحتفاء بأهل هذه الوجوه، وما أُعِدَّ لها من النعيم المقيم، والفضل العظيم، والفيض العميم من الله الكريم، الحنان، المنان، الرحيم(١).

وتقديم شبه الجملة: "فيها"، واستعمال حرف الجر المفيد للظرفية (في) يعني أنّ السرر منبثة في كلِّ زواياها، وكلِّ ثناياها، وكلِّ طواياها، وأنّها طويلة حتى لا يكاد من طولها يراها الرائي، فهي على طول الجنة مبثوثة، وموضوعة بشكل آسر، يأخذ بِلُبِّ الإنسان، ويتيهُ في جمالها العقلُ، ويحتار الفكر، وتحار الروحُ متنقلةً بينها، وكلُّ سرير يختلف جمالا، وكمالا، وبهاء، وإعدادا، وتجهيزًا، وصفاء عن أخيه، حتى إنّ الناظر ليتمناها كلَّها له، ويريدها جميعًا؛ لينعم بكل ما فيها من تُحَفٍ، ومناظرَ يصعب على العين أن تغلق طرفها أمامها لحيظة، وكلُّها مخلوقةٌ بيد الله- تعالى-، ومقرَّرة بأمر منه- سبحانه-، فناهيك عن شيءٍ خلقه الله، وأعدَّه لعباده الأبرار، وخاصته الأطهار!، وفي وصف الجنة ورد الحديث النبوي الجليل، الذي فيه:"... فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر".

وترى الضمير (ها) في الآيات يربط بين جنباتها، ويمتّن بين كلماتها برباط

(١) (التفسير الوسيط للقرآن الكريم - تأليف لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية، ٨/ ١٨٨٩ ، وتفسير الكشاف، ١١٩٨).

الأخوة، والتناغم، والتماسك، حتى تبدوَ الآياتُ كأنها عِقْدٌ منظوم، وجمالٌ منغوم، حباتُه اللؤلؤُ الصافي، والعنبرُ الضافي، والجمالُ الكافي، الوافي، وقوله: "سرر مرفوعة: لتصوير حسنها، وجمال هيئتها إذا نُظِرَ إليها كانت ات قدر ورفعة في عين رائيها، واستلاب روحه من جمالها وجلال هيئتها، وذكر الزمخشري في كشافه ، فقال: "مرفوعة : من رفعة المقدار، أو السُّمْك ليرى المؤمن بجلوسه عليه جميع ما خوَّله ربه من الملك والنعيم، وقيل: مخبوَّة لهم، من رفعَ الشيءَ إذا خبَّأه[1].

الآية الرابعة عشرة: " وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤) ".

إنّه العطف، وما أجمل العطف!، حيث يتعطَّف علينا بحنانه، ويُضِيفُ نِعَمًا من نعم الله، وكماله، وفَيْضًا آخر من آلائه، ونعمائه، وعطائه، فالأكواب الكثيرة المتنوعة التي هي من فضةٍ قدَّروها تقديرًا، ومنظر الكوب يجعل الطرف يتوقف عن الغمض، والعينَ تقف عَنِ الغلق، وتقفُ النفس حيرى من جمال الأكواب، وجلال وضعها، وطريقة صنعها، وتقديمها من الولدان المخلَّدين، اللؤلؤ المنثور، وبجوارهم جمالُ الحور، وسَعة ضيائهن الذي رَبَا على كل نور، وأحضر السعادة، والسرور، واستجلب الفرحةَ، والحُبُورَ.

وتنكير :"أكواب" يعني كثرتها الكاثرة، وتعدُّداتها الآسرة، وتنوُّع صناعتها الآخذة بالقلوب، والجاذبة للألباب، وقوله:" موضوعة" بتنكيرها الذي يَشِي بجمال هندسةِ وضعها، وجلالِ رَصِّها، وحُسْن هندامها، ورصفها، و(موضوعة) اسم مفعول منكَّر، فقد وضعها ملائكةٌ دُرِّبُوا على أعلى، وأرقى مستويات الخدمة، وتجهيز الحجرات، وأماكن اللقاء، فقد وضعها متخصصون من الملائكة، فليس وضعُها كما توضع أكوابُ الدنيا مقلوبةً، وتحتها المناديلُ المطويةُ بشكل آسر، فكلُّ ما في الدنيا من أعلى منازلِها لا شيءَ يُذْكَرُ أمام موازينِ الآخرة، وتجهيزاتِها، فهي موضوعةٌ، وكلمة "موضوعة" فيها من الحسن، والجمال ما فيها، فهي مجهَّزة بصورة جذابة،

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ، ٣٠/ ٣٠٢ ، والكشاف ،١١٨٩.

ومُعَدَّةٌ بشكل أخاذ: أشكالا، وأحجاما، وألوانًا، ومادةً، وتشكيلاتٍ، وضعَها قبلَ مجيئها أهلِها ملائكةٌ هم سادةُ الإعداد، وأساتذة فنِّ التقديم، والخبرة، والإيتيكيت، والمدربون على حُسْنِ الاستقبال، وبراعة القول، وجمال التقديم، وكمال حُسْنِ الضيافة، واسم المفعول: "موضوعة" لو تخيلناه بمقاييسِ الآخرة ما وَسِعَنَا إلّا البكاءُ لله شكرا؛ على ما أعده، وما جهَّزه، ووضعه ملائكتُه الكرام؛ ليكون في استقبال أهلِ الله الذي أحسنوا استقبالَ أوامرِ الله في دنياهم، وجعلوها موضع عنايتهم، وتوقيرهم، وخدمتهم، ونهضوا لطاعة ربهم، وتشرَّفوا بخدمة عباده؛ استنزالا لرضاه، فاليومَ يجدون نتيجةَ ما قدموا، وزيادةً، وعاقبةَ ما تعبوا، وفيه إفاضةٌ، فهم رَهْنَ النعمِ قابعون، وحِيَالَ الفضلِ لا يُتْرَكُونَ، وهم فيها خالدون، وفي أفياء جنان الله قائلون، ولله حامدون، ولعظمته شاكرون.

قال الزمخشري: "موضوعة كلما أرادوها وجدوها موضوعة بين أيديهم، حاضرة، لا يحتاجون إلى أن يدعوا بها، أو موضوعة عن حد الكبار، أوساط بين الصغر، والكبر، كقوله: "قدروها تقديرا"[(١)].

وكلمة "أكواب" جمع قلة قام مقامَ جمع الكثرة؛ لأنّه لا جمعَ كثرة له، فهو يتناسب مع السُّرُرِ التي لا حصرَ لها، ولا عَدَّ لأنواعها، فمعناه معنَى جمع الكثرة، ولا لفظَ فيه للكثرة، فينهضَ جمعُ القلة ليقوم مقامَ جمع الكثرة، ويقوم بمعناه، ويغني مغناه، ويؤدي فحواه، فهو في حكم جمع الكثرة بدلالة السياق.

(١) الكشاف للزمخشري، ١١٩٨، وتفسير الوسيط للقرآن الكريم- تأليف لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية، ٨/ ١٨٨٩.

الآية الخامسة عشرة: "وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) ".

الواو عاطفة، ويستمر معها الخيال، فهم بعد كل ما تقدم، يتكئون على نمارق، والنُّمْرُقُ هي الوسادة الصغيرة يُتَّكَأُ عليها،" العريضة الفاخرة، المبسوطة هنا وهناك، وقال الفراء: الطنافس التي لها خمل رقيق، أ يهدب، وقال الراغب: إنها في الأصل ثياب محبرة، منسوبة إلى موضع، ثم استعيرت للبسط، وواحد الزرابي زربية مثلثة الزاي"، وجمعها نمارق، أي عندما يريد المرء أن ينام على أحد جنبيه، يتخذها تُكَأَةً، يستندُ عليها مستريحًا لنعومتها، وكمال مهمتها التي أعِدَّتْ لها، كالطِّنْفِسَةِ فوقَ الرَّحْلِ تريح الجالس، ويطيب المكث فوقها لشدة إراحتها، وجلال صنعها، ووزن (نمارق) هو وزن وصيغة من صيغ منتهى الجموع، أي أنّ النمارق لا عد لها، ولا حصر لأنواعها، ومهماتها، وأشكالها، وإبداع صنعها، فهي متنوعة متعددة، وتشكيلاتها تجعلك تتمنى الاتكاء عليها جميعا رغم أنها بالمليارات، كما أنّه الوصف(مصفوفة) يعطيك الجمال كله، والجمال كله، حيث صُفَّتْ بأشكال قيد النظر، ووقف العين، فاسم المفعول فيه دلالة الحسن، وجمال الرصف، وكمال التنظيم، وعملقة الوضع، والملائكة يحسنون صفها ورصفها وتنظيمها، والمؤمن في الجنة يتمتع بها كلها بمجرد أن ينظر إليها وتتحرك نفسه تأتيه مباشرة كأنّما سمعته يناديها، فالمؤمن يتمتع بكل ألوان المتعة تأتيه بمجرد تحرك نفسه وروحه نحوها: "وذُلِّلَتْ قطوفها تذليلا"، كأنّما تكاد تبكي لتتناولها: أكْلًا وشَمًّا، واستطعامًا، وكلما أكلتَها خرجتْ مثلها مكانها، وأجمل، وأطعم منها، تناديك أنْ :"كُلْنِي فأنا أحلى من أختي التي أكلتَها، وتتذللُ متعطفةً لك أنْ تَطْعَمَهَا، وهكذا كلما طعمتَها، وجدت حلاوةً أشدَّ من السابقة، وأنتم فيها خالدون[١].

والتعبير بالنكرة، والوصف المنكَّر فيه تعداد لكثرتها، وعدم الإحاطة بأعدادها،

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم- تأليف لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية ، ٨/ ١٨٨٩، والكشاف ، ١١٩٨.

كما أنّ فيه بيانا لكمالها، وجمال منظرها، وراحتها، وكونها وطاء ناعما، ومتكأ لينا وثيرا، كلما بدلته وجدت غيره أكمل وأحسن، ولا تسلى الاتكاء عليه، والاستراحة به مهما جلست، ومهما أخذت نمرقة منه للراحة.

الآية السادسة عشرة: " وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦) ".

ويستمر الوصفُ، ويتواصل الفضل، والنعمُ بواو العطف، الرابطة أجملَ ربط، والمسِّكة بين جنبات النص أكمل إمساكٍ، والمداخلة بين الآيات أشدَّ تداخلٍ، وزرابي جمع كثرة، وهي من صيغ منتهى الجموع، ومفردها زربية، وهي الوسادة التي تبسَط للواحد منا، ويُجلس عليها، بخلاف الوسائد التي يتكأ عليها (النمارق)، فلكل فائدة، واستعمال، والمرفَّهون في الدنيا – إذا زُرْتَهُمْ مرةً – وجدتَ أنّ لديهم وسائلَ ترفيهٍ، تتعجب منها، ليست لغيرهم مِمَّنْ هم أقلُّ منهم، فما بالك بمَنْ منحهم الله من فضله جنةً فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خَطَرَ على قلبَ بشرٍ، ولا جاء في ظنِّ إنسان، ولا سَنَحَ ببالِ مخلوقٍ.

و(مبثوثة) اسم مفعول منكر من الفعل الثلاثي (بُثَّ)، أي انتشر في كل الزوايا والطوايا العلايا منها، والسفالى، المشرِّق منها والمُغرِّب، هي من كثرتها الكاثرة مبثوثة أي موضوعة بأشكال راقية، ومنتشرة في أماكن عديدة، أينما أردت النوم والراحة وجدتها في كل شبر في تلك الجنة، وبكل لون تشتهيه نفسك، وترغب فيه ذاتك، وترجوه روحك، إنّه موجود في كل مكان، ومتوفر في كل مكان، وزمان، ومنتشر في كل المناحي والأركان.

وتنكير الزرابي رغم أنّها من صيغ منتهى الجموع، وتنكير صفتها(مبثوثة) يشعر بمدى الفرحة، وكمال السعادة؛ حيث إنّها على مرمى البصر، موجودة، وكل منها منتشر منتشر، ومبثوث مجهز للنوم والاتكاء، فالراحة مضمونة، والنعيم يُتَذَوَّق في كل نواحيها، وكل ضواحيها، ومبانيها.

وبالطبع فإنّ تلك الألفاظ يعرفها العربي، ويحسن فهمها ويعرف الفارق بين

النمارق والزرابي، واستعمال كل منها، وموعد استخدامه، وطلبه[1].

وبعد أن عرض لصفات، وسمات كلِّ صنفٍ من هذين الصنفين من الوجوه، شرع يبيِّن الطريقَ إلى مظاهر قدرة الله، وبديعِ صنعه، وطلب إلينا أن نتأملَها، ونتفكرَ فيها، وأن ننظر إليها؛ متخذين العبرة من القدرة الإلهية، ومتأملين سَعَةَ المشيئة، وحجمَ الصنع، وكمالَ الإتقان؛ عسانا أن نصل بَعْدَ كلِّ هذا التفكرِ، وإنعام، وإمعان النظر إلى مطلق التسليم لله، المؤدي إلى دخولنا تحتَ أوصافِ الوجوهِ الكريمةِ التي وصفها من قبلُ، وألا ندخلَ تحت الوجوهِ الأولى التي جاء وصفُها فظيعًا، وسمتُها شنيعًا، فقال – عز من قائل عليمًا–:

الآية السابعة عشرة: " أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) ".

بدأت الآية بالاستفهام بأداته الأساسية الهمزة، واجتمعت الهمزة مع الفاء، وهو أسلوب عربي، عطفت فيه جملة بالفاء على جملة الاستفهام، فإذا رأيت:(أولا– أفلا) فاعلم أنّ الجملة الواقعة بين الاستفهام، والعطف قد حذفت، والسياق يفضي إليها، وهنا مثلا يكون تقدير المحذوف: (أعموا فلا ينظروا)، فالجملة حذفت، وبقيت الجملة المعطوفة ؛ لتبين حروف الجملة المحذوفة، وهو أسلوب مطروق، مسلوك عند العربي[2]، وعبره يدرك المحذوف، ويتعظ به، ويمضي في المذكور، ويتتصح بالجملتين، و(لا) هنا نافية غير عاملة بدلالة ثبوت النون في آخر المضارع، والتعبير بالمضارع يفيد استمرار طلب النظر، وعدم تركه؛ لأنّ في تركه الضلال والهلاك، وعدم الوقوف على جلال القدرة الإلهية، والعظمة الربانية في الإبداع وخلق كل ما في الكون من إبل وسماوات وأرضين وجبال وهضاب ، ومرتفعات ووديان ومنخفضات، وطيور ووحوش، وفجاج وسبل، وكلها تظهر الرحمة الإلهية بالإنسان حيث خلق كل ذلك، ولفت نظر عباده إلى التأمل في جليل صنعه، وجميل عطائه،

(١) الكشاف ، ١١٩٨، والتفسير الوسيط للقرآن الكريم– تأليف لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية ، ٨/ ١٨٨٩، إعراب القرآن وبيانه للدرويش ، ١٠/ ٤٥٧.

(٢) إعراب القرآن وبيانه للدرويش ،١٠/ ٤٥٩ .

والإبل التي أمرنا بالنظر إليها هي الجِمال، والنوق، ولا واحد لها من لفظها، فواحدة جمل وناقة، وهو ليس من لفظ الإبل، وهو مؤنث، وجمعه آبال، وإبلان للقطيعين، والإبل تعطي منظر الحسن، وخصوصا عندما يركبها الراكب، ويستريح على ظهرها، وتمضي تتألق به يمنة ويسرة، وهي تحمل الأثقال، وهي سفن الصحراء، وخلقها إبداع، والتأمل فيها وفي فوائدها يهدي إلى الإقرار لله بجميل الصنيع، ويسجد له لجلال قدرته، وكمال خلقه، والتفكر وإحسان النظر إليها يجعل المؤمن يزداد بربه إيمانا، وتشريحها ومعرفة مكوناتها يهديه إلى واسع عطاء الله، وكامل رحمته، و(أل) في الإبل إمّا جنسية، أي مطلق الإبل على اختلافها، وتعدد أنواعها، وإمّا أنّها عهدية، أي الإبل التي عهدتموها بينكم، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلّا بشق الأنفس، وتعب الأفئدة، ولعل السياق يقول بجنسيتها، سواء أكانت تحت أيديهم، أو في أي بقعة من بقاع الدنيا؛ لأنّها من صنع الله في أي مكان، وقال الزمخشري كلاما رائعا، لا بأس هنا من نقله: "أفلا ينظرون إلى الإبل نظر اعتبار، كيف خلقت خلقا عجيبا دالا على تقدير مقدر، شاهدا بتدبير مدبر، حيث خلقها للنهوض بالأثقال، وجرها إلى البلاد الشاحطة، فجعلها تبرك حتى تحمل عن قرب، ويسر، ثم تنهض بما حملت، وسخرها منقادة لكل من اقتادها بأزمتها، لا تعاز ضعيفا، ولا تمانع صغيرا، وبرأها طويلة الأعناق لتنوء بالأوقار، وعن بعض الحكماء أنّه حدث عن البعير، وبديع خلقه، وقد نشأ في بلاد لا إبل بها، ففكر ثم قال: يوشك أن تكون طوال الأعناق، وحين أراد بها أن تكون سفائن البر صبرها على احتمال العطش، حتى إن أظماءها لترتفع إلى العشر، فصاعدا، وجعلها ترعى كل شيء نابت في البراري والمفاوز مما لا يرعاه سائر البهائم"(١).

وهذا الاستفهام يخرج مخرج الأمر، أي: انظروا، وتفحصوا، وادرسوا وتفكروا في تكوينها، وهيئتها، وبديع خلقتها على تلك الصورة، واعلموا من علماء الحيوان كم

(١) إعراب القرآن وبيانه، ١٠/ ٤٥٩.

هي نعمتي عليكم، ورحمتي بكم، وعطائي لكم.

وجمعهم في ضمير واحد(هو واو الجماعة) يفيد ضرورة التفكر الآحادي، والجمعي؛ لكي يفيد بعضكم بعضًا من المتخصصين، والدارسين في علم الحيوان، وتشريحه، ومعرفة أجزائه، وفوائدها في كلِّ الإبل، وأصنافها، وأطيافها، وأنواعها، وإبداعها، وإدراك منافعها، ومعرفة إمكاناتها.

والفعل (ينظرون) يحتمل النظر البصري المادي، والنظر العلمي العقلي المعملي، البحثي، الذي تقدَّم فيه الدراسات الأكاديمية، وما تفرزه من علم،

وفائدة، ونور، واطلاع، وتعمق في فهم طبيعة الإبل، وما تقدمه للإنسان.

وحرف الجر(إلى) يعني النظر المادي، فالنظر بالعين الباصرة يستعمل في النظر المادي بالعين التي في الوجه، وتبصر، كما في قوله- تعالى-:" وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة"، ونظرت إليك بعيني، أي أبصرتك بها.

والتعبير بجملة: (كيف خلقت) يبين لك ضرورة التفكر، وعدم التسرع، أو هو كناية عن عجيب الخلق، وبديع الصنع، فالأداة (كيف) تؤدي معنى التعجب، والانبهار، كما لو نظرت إلى قصر منيف، كلُّ قطعة فيه تحفةٌ من التحف النادرة، وهو مبنيٌّ على أحدث طراز، فتقول لصاحبه:" كيف بنيت هذا؟!"، مستفهِمًا استفهامَ المنبهر، ومتعجبًا تعجبَ المأخوذ الذي قلبه في اندهاشٍ مستقر، ومستمر، وتقديم اسم الاستفهام:(كيف) يبين سعة الاندهاش، وقوة الانبهار، وهو تقديم واجب؛ لكونه اسم استفهام، وألفاظ الاستفهام لها صدارة الكلام، وفي قوله: "خُلِقَتْ" عارض بالحذف؛ لأنّ الفعل بُنِيَ لما لم يُسَمَّ فاعله، والتقدير:" كيف خلقها الله خالقها ومبدعها ومنشئها على غير مثال سابق؟!"، ولكن الفاعل حذف للعلم اليقيني به؛ ولأنّ أحدا لا يمكن أن يُنْكِر أنّه الخالق، والجميع موقن بمَنْ خَلَقَ، وهو الله- تعالى-، فبناؤه لما لم يسم فاعله تأكيدٌ على قدرة الله، وعلمٍ بالخالق- جل في علاه، وعز في أرضه، وسماه-، وليس لأحد سواه.

وأصل الخلق هو الصنع، والتقدير، والإبداع على غير مثال سابق، وهو لله وحده[1].

فالدعوة للنظر إلى الإبل تورث الإيمان بالله، وتقرُّ لله ببديع الصنع، وأنّه خالق السموات، والأرض، وتفضي إلى الإقرار له بالربوبية، والألوهية التي توصل إلى أن يكون أصحابها من ذوي الوجوه الناعمة التي ارتضِيَ سعيُها، وهي في عيشة راضية، أمّا مَنْ يعطل وسائلَ الإدراك، ومنها نعمة النظر، ومِنَّة البصر - فهو مستحق أن يكون من أصحاب الوجوه البائسة، اليائسة، العابسة، التي ورد وصفها أول السورة الجليلة، وتعبْنا من تأملها، والوقوف أمام عاقبتها الكؤود، وحَزِنَّا إلى أصحابها، لما رأيْناه من عاقبتهم الكَأْداء[2].

والآية كناية عن وجوب النظر، وتتابع التفكر، وتواصل التأمل في كل صنع الله؛ وصولا إلى عظمة قدرته، وكمال خلقه، وتمام نعمته، وجلال صنعته.

الآية الثامنة عشرة: " وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) ".

في هذه الآية عارض التقديم، وعارض الحذف؛ لوجود الفعل المتقدم: "ينظرون"، والتقدير: "أفلا ينظرون إلى السماء كيف رفعت"، وقد حذف لعلم القارئ بالسياق السابق، وأنّ العطف عطف جمل، حيث عطفت على الجملة السابقة، وأنّه لما كان مدركًا للتراكيب العطفية ، حذف له الفعلَ؛ لأنّ كل الجملة مردودة إليه، ومعطوفة عليه، وينظرون إلى السماء مضارع يفيد استمرار النظر، وتتابع التأمل، وضرورة التفكير المتكرر لبديع صنعها، وكبر حجمها؛ لأنّ خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، فلو تعجبنا من خلق الناس لكان التعجب من خلق السموات، والأرض أولى، وأعجب، والله يقول:" ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا

(١) القاموس المحيط خ ل ق ، ٤٩٤، والمعجم الوسيط خ ل ق ، ١ / ٢٥٢، وأساس البلاغة للزمخشري خ ل ق ، ١٧٣.

(٢) الكشاف ، ١١٩٨، وتفسير المراغي ، ٨/ ٤٠٩- ٤١٠.

ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ ﴾، سورة الرعد، وقال:" ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾ " سورة فاطر.

وقوله: (السماء) هنا قام المفرد مقام الجمع، أي السموات، والتعبير بالأداة (كيف) كناية عن عجيب صنعها، وجليل خلقها، وأنّها فوق احتمال العقل البشري المخلوق، قال – تعالى-: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ سورة البقرة، فالسماء تعبير بالمفرد عن الجمع، وسماء واحدة تكفي للتعبير عن جلال صنع الله، وكمال خلقه لها، ومثلها أخواتها من السموات الأخر، فكلُّ سماء مبعث الانبهار، وسببُ العجب، والتيه من جمالٍ، وكمالٍ، وإبداعِ الصنع، والحبكِ الدقيق، قال– تعالى:" ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ "سورة الذاريات، وقال– تعالى– عن دقيق صنعها:" وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧)" سورة الذاريات، وقال لنا: إنّ الناظر لِيَجِدَ شيئا من عدم الدقة، وأن يلتمس شيئا من الشقوق، والفطور فيها ليرجعُ إليه بصره خاسئًا مطرودًا ذليلا ، وهو حسير، قال– تعالى-: ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾ ﴾ سورة الملك.

فصنع الله صنعٌ محبوكٌ، لا فطورَ فيه، ولا شقوق، ومَنْ أراد أن يبحث بأدق أساليب البحث العلمي لا يسعُه إلّا أن يقرَّ لله بإحكام الصنع، وطلاقة القدرة فيه، وسيعود مَنْ يحاول إيجادَ خلل بالحسرة، والندامة، والعار، والشنار؛ لما يراه من جلال الجلال، وكمال الكمال، وجمال الجمال، وهيمنة الكبير المتعالي، وبديع الصنع

المتلألئ الفعَّال، الناضح بكل دليل، وبرهان، وجلال.

والفعل: (رفعت) بوزن فُعِلَتْ مبني لما لم يُسَمَّ فاعلُه؛ للعلم بالرافع، ومَنْ له حقُّ الثناء، ومن خلق، ورفع، وحبك، وأنشأ فلا داعيَ للتذكير به؛ حيث إنّه لا يُنْسَى، ولا يمكن أن يذهب عن البال، بأي حال من الأحوال.

والرفعُ كناية عن القوة؛ لأنّ السماء الواحدة إذا وقعتْ على الأرض سَوَّتْهَا بالتراب، فلا يبقى فيها شِيبٌ، ولا شبابٌ، ولا ظاهرٌ، ولا سرابٌ.

كما أنّ بناءه لما لم يُسَمَّ فاعله هو كناية عن ثقله الكبير، وتعدد مَنْ أمرهم الله برفعها، فهم لا يُعَدُّون كثرةً، وقوةً، وعَددًا، وعُددًا، وفتوةً، وقدرةً، وشدةً[1].

وتقديم شبه الجملة فيه لفتُ نظرِ الناظرين إليها؛ لأنّها لو تأخرتْ لما تنبهوا إلى قوتها، ومتانتها، وشدتها، واتساعها، وعرض السموات كلها وحده شُبِّهَ به عرضُ الجنة ؛ دليلا على أنّها جنة عملاقة، عرضها فقط هو عرض السموات، والأرض، ونحن لم نقف على عرض السموات، والأرض حتى نفهم المشبه، والمشبه به، كما قال- تعالى-:" طلعها كأنّه رؤوس الشياطين"، فنحن لم نر الشياطين حتى نعرف طلع شجرة الزقوم، وما ذلك إلّا أن نتخيَّل الصورة كلَّ متخيل، ونتصور ما لا يمكن تصويرُه؛ لأنّ المشبه به- والأصل معرفته- لا نعرفه، وهي لغة قرآنية رائعة، تأتي كناية عن خطورة المشبَّهِ به، وسعته التي لا يحيط بها عقلٌ، ولا تقع تحت خيالٍ، مهما كان المتخيِّل، والمتخيَّل، قال- تعالى-: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ سورة آل عمران.

فالنظر إلى السماء الواحدة هو نظر للسموات السبع، وفيه إرشاد إلى عظمتها، وعظمة خالقها، وعلينا أنْ تأملها بصدق يُفضِي إلى جليل الإقرار، وعميق الاعتراف لله بأنه القادر على كل شيء؛ ومن ثَمَّ يمضي المقر ليكون من أصحاب الوجوه الناعمة

(١) ينظر تفسير الجلالين الميسر ، ٥٩٢، والتحرير والتنوير ، ٣٠/ ٣٠٣-٣٠٧، والبحر المحيط ، ١٠/ ٤٦٤-٤٦٦.

التي هي لسعيها راضية، وتدخل الجنة العالية التي وصفت بأوصاف سامية، والجميع يرنو إليها بأعين حانية[1].

الآية التاسعة عشرة: " وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) ".

هنا كذلك عارض بالحذف لارتداده إلى الفعل: "ينظرون"، والأصل، أفلا ينظرون إلى الجبال كيف نصبت؟!، فالجميع معطوفة بأداة العطف الرائعة التي تعدد آثار الله في كونه، وتأخذ بيد المؤمنين إلى مظاهر القدرة الإلهية مظهرا مظهرا، ومخبرا مخبرا، ففعل النظر محذوف ؛ لأنّه من قبل مذكور مذكور، وعارض التقديم في شبه الجملة: "إلى الجبال" يبين خطورة صنع الجبال ، وأنّه لولا نصب الله لها لمادت الأرض بأهلها، ولما استقروا يوما على متنها، ولضاعت معاشاتهم، وانتهت حيواتهم، وضاعت منافعهم، حيث قال في سورة النازعات : ﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾ ، ولكن تلك الجبال التي تستقر بها الأرض، وهي رمز الثبات والهدوء وعدم المَيْدِ والقوة في يد الله كالعهن المنفوش، فهي يوم القيام تطير في الهواء كقطنة خفيف في مهب الرياح تروح يمنة، وتعود يسرة، لا وزن لها أمام قدرة الله، وبأسه، قال– تعالى-: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴿٥﴾ ﴾ سورة القارعة.

والفعل(نصبت) بالبناء لما لم يسم فاعله يبين سعتها وضخامة حجمها، وأنّها قد وكل بها ملائكة غلاظ شداد أقوياء ، في قوتهم أقوى منها لاستطاعة حملها ووضعها، ونصبها، وبنائها بصورة هندسية متوازنة للحفاظ على حركة الأرض الموارة، ودوراتها السيارة، قال – تعالى-: ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ سورة النمل.

فالفعل: "نصبت" يبين جلالها، واتساعها، وكبر حجمها حتى إنّ الناصب لها

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، ٨/ ١٨٩٠-١٨٩١، والبحر المحيط ، ١٠/ ٤٦٤-٤٦٥، وتفسير البغوي ، ٨/ ٤١٠ .

متعدد بأمر الله، ومأمور بأمره، ومنفذ في الحال لطلبه، والفعل فيه من النصب، ومن دلالته الكثير؛ فهي الجبال الثقال، ومواضع التثبيت، وأسباب الاستقرار، وهي دعائم بقاء الأرض من التحرك والاضطراب والميد، فالنظر إليها ، وإلى مثبتها يدفع إلى الاعتراف بالفضل، والإقرار بالألوهية؛ ومن ثم الإيمان بالله والدخول في أهل الوجوه الناعمة، التي لسعيها راضية.

والآية كناية عن عظمة الله، وسعة قدرته، وكامل يوميته، وبديع صنعه(١).

الآية العشرون: " وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) ".

لا تزال الواو تعدد آثار القدرة، ومكامن العظمة، ومناحي الكمال الرباني في صنيع إبداعه، وهنا عارض حذف كالسابق، والأصل: "أفلا ينظرون إلى الأرض كيف سطحت"، وهو محذوف لكونه من قبل مذكورا، معلوما، والنظر ، والتأمل، كله يؤدي إلى الإيحاء بعظمة خلقها، وقدسية دحوها، وتسطيحها هو تسويتها، وتجهيزها بحيث يمكن السير عليها، والانتفاع بقاراتها، والتمتع بأماكنها على اختلافها، واتساعها، وتوزيع الرزق فيها، وتطلب المعيشة في أرجائها، والتكامل بين أهليها، و(أل) فيها قد تكون جنسية ، أيْ جنس الأرض بقاراتها الست، وهضابها، وجبالها، وبحارها، والنظر إلى الأرض، وكل من وما عليها، فيه أيضًا كناية عن التعجب منها، والانبهار بجنباتها، وكمال تسويتها؛ حيث يتطلب التسطيحُ ملياراتِ البشر للعمل، ومليارات الآلات، والمعداتِ، والقُوَى؛ لكي تكون مؤهَّلة للسير عليها، والإفادة منها، ومن فجاجها، ومسالكها، وانعطافاتها، ولكن الله سوَّاها، ومهَّدها، وأرسى جبالها، وجعلها مسوَّاة، مُسَطَّحَةً؛ ليسهل العيش عليها، والتنقل بين جنباتها، والسعي في مناكبها؛ لأنّه الله القادر، القدير، المقتدر، خلق الخلق، وخلق لهم ما عليه يتعايشون، وما به يعتاشون.

والفعل المبني لما لم يُسَمَّ فاعلُه" (سُطِحَتْ) يبين عدد من سطحوها من الملائكة،

---

(١) ينظر : الكشاف ، ١١٨٩، وتفسير التحرير والتنوير ، ٣٠/ ٣٠٦.

وكم الجهد لكبير الذي يذلوه في ساحاتها الممتدة عبر القارات، كما أنّه يبين بديع الصنع، وكبير الرحمة، وواسع العطاء من الله لعباده، وأشار إليهم أن ينظروا إلى ذلك كله؛ ليعرفوا حجم النعمة، وعظمة صاحبها، وما قدمه لعباده؛ حتى يعبدوه على نور، ومعرفة، ويصلوا إلى مقام الوجوه الناعمة التي هي لسعيها راضية، وتدخل بإذنه جنة عالية، قطوفها دانية.

والآية كلها كناية عن عظمة الله، في كونه، وآثار وجوده الشاهدة على إبداع صنعه، وكمال رحمته، وجليل عطائه لخلقه، وجميل فضله لعباده.

قال الطاهر بن عاشور: "... ثم نزل بأنظارهم إلى الأرض، وهي تحت أقدامهم، وهي مرعاهم، ومفترشهم، وقد سطحها الله، أي خلقها ممهدة للمشي والجلوس والاضطجاع، ومعنى سطحت: سويت، يقال: سَطَح الشيءَ: إذا سواه، ومنه سطح الدار، والمراد بالأرض أرض كل قوم، لا مجموع الكرة الأرضية، وبنيت الأفعال الأربعة إلى المجهل؛ للعلم بفاعل ذلك"(1).

الآية الحادية والعشرون: " فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) ".

هنا عارض بالحذف؛ لأنّ الفاء هنا تفريعية، أو هي الفاء الواقعة في جواب شرط محذوف، والتقدير: "إن كنت قد وقفت على بديع الصنع، وجليل الخلق في هذا الكون فذكر غيرك به، وادع الناس إليه، ونبهم إلى سبيل الله، وطريق المولى، إنّما أنت مذكر فقط، لا ترغم أحدا على الإيمان، أنت مذكر لخلقي بي، وآخذ بأيديهم إلي، ولست مكرها أحدا على الإيمان بي، فلو شئتُ لهديتُهم أجمعين، إنّما أنا واضع مظاهر عظمتي في كوني، وللناس حرية الاختيار التي لا تخرج عن مشيئتي: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ

(١) ينظر: التحرير والتنوير، ٣٠/ ٣٠٦، والبحر المحيط، ١٠/ ٤٦٥، وتفسير البغوي، ٨/ ٤١٠.

عَمَلًا ﴿٣٠﴾ [١].

فالجملة الشرطية محذوفة والفاء تشير إليها، وتدل عليها، فالفاء واقعة في جواب شرط محذوف مقدر، وجملة: "فذكر" جملة جواب الشرط في محل جزم، وقد اقترن جوابها بالفاء؛ لأنه مبدوء بفعل طلبي، هو الأمر، والفاعل مستتر وجوبا ، تقديره "أنت"، يعود على شخصه الشريف، وعلى المؤمنين بالله، الماضين خلفَ رسولِ اللهِ، والسائرين على خطاه، والمُسْتَنِّينَ بسنته، وهداه، والمتعجِّلين بالدعوة إلى دينه، وشرعه، وسيرته، وسُنَّتِهِ المطهرة، والراضين المتمسِّكين بما صدر عن ربه، وما نزل عن مولاه – جل في علاه – وهو ما قاله الطاهر بن عاشور في تفسيره، قال: "الفاء فصيحة، تفريع على محصَّل ما سبق من أول السورة الذي هو التذكير بالغاشية، وما اتصل به من ذكر إعراضهم، وإنذارهم، رتّب على ذلك أمرَ اللهِ رسولَه – صلى الله عليه، وسلم – بالدوام على تذكيرهم، وأنّه لا يؤيسه إصرارهم على الإعراض، وعدم ادكارهم بما ألقى إليهم من المواعظ، وتثبيته بأنّه لا تبعة عليه من عدم إصغائهم؛ إذ لم يُبعَث ملجئا لهم على الإيمان"، فالأمر مستعمل في طلب الاستمرار، والدوام، ومفعول "ذكر" محذوف، هو ضمير يدل عليه قوله بعده: "لست عليهم بمسيطر"، وجملة: "إنّما أنت مذكر" تعليل للأمر بالدوام على التذكير مع عدم إصغائهم...."[٢].

الآية الثانية والعشرون: " لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ (٢٢) ".

تعرض الآية هنا مهمة النبي – صلى الله عليه، وسلم –، وتصف دين الإسلام بأنّه لا إكراهَ فيه، وأنّه لا يُرغِم أحدًا على اعتناقه، ولو كان ذلك من شخص رسوله الكريم نفسه؛ لأنّه قد تبين الرشدُ من الغي، وأنّ الدين مبنيٌّ على الاعتناق بكل حرية، أو على حرية الاعتناق، ودون أدنى إكراه من أحد لأي أحد، والجملة هنا منفية، وهي منسوخة بالفعل الناقص (ليس)، ومن خصائصه دخول حرف الجر الصلة (أي الزائد

(١) سورة الكهف ، الآيتان : ٢٩-٣٠.

(٢) ينظر : التحرير والتنوير ، ٣٠/ ٣٠٦ ، والبحر المحيط ، ١٠/ ٤٦٥ ، وتفسير البغوي ، ٨/ ٤١١.

عند من يصفه بالزيادة) في آخره؛ لبيان استحالة السيطرة في الاعتقاد خاصة على أحد، وجاءت (لا) نافية للجنس لتأكيد ذلك وترشيحه، وتقويته في نفوس المؤمنين، وقد توفر شرط صلة، أو زيادة حرف الجر، وهي أن يُسبَق بنفي، أو بشبه نفي(وهو النهي، والاستفهام)، وأن يدخل الجارُّ على نكرة، وقد تم ذلك هنا، فـ(بمسيطر) خبر (ليس) مجرور لفظا، منصوب محلا، أو هو خبر ليس منصوب ، وعلامة نصبه فتحة مقدرة، منع من ظهورها اشتغال المحل(وهو اللفظ) بحركة حرف الجر الزائد، أو الصلة، ودخول الحرف هنا يفيد عدم سيطرة الرسول، أو الداعية على الناس بأيِّ لونٍ من ألوان السيطرة على تعدُّدها، وتنوُّعها، وطرقها، وأساليبها، وهو اسم فاعل من الفعل الرباعي:(سيطر)، فكل ألوان السيطرة، والهيمنة ممنوعة، وكل أساليب الإكراه مرفوضة، إنّما هو التذكير، والبيان، والتوضيح فقط، فالشخص له يؤمن، أو لا يؤمن، ولكن زاد البغوي قولا مهما، وهو: "نسختها آية القتال".، قال - تعالى-: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ ﴾[1].

والآية كناية عن صفة هي لين الإسلام، ووضوح عقيدته، وأنّه دين يسر، وسهولة اعتقاد، وديان سمح، لا فيه إكراه، ولا اقتياد، إنّما أمر اعتقاد، أمر ميسر، لا عسر فيه، ولا ضغط، ولا إملاء، ولا إكراه، إنّما هو دين يعمل في رابعة النهار، وتحت ضوء الشمس، ولا يعرف العمل في الظل، ولا تحت إرغام السيوف، وقطع الرقاب، عنوانه ولسان حاله أنه: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ

(١) سورة الكهف ، الآيتان : ٢٩- ٣٠.

سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾[١][٢].

وهذا الأسلوب هو أسلوب قصر بزيادة، أو صلة حرف الجر، وهو قصر صفة على موصوف، وفيه تأكيد على أنّ الرسول، ومن معه من المؤمنين لا يُلزِمون أحدًا بالدخول في الدين، وليس من واجباتهم سيطرةُ أحدٍ منهم على أهلِ أيِّ ملةٍ أخرى، فكلُّ الأمرِ رُهَيْنُ الحريةِ، وخصوصًا في قضايا الاعتقاد، ومسائل الإيمان، والاتِّباع، فالحرية الدينية هي شعار الإسلام.

واستعمال حرف الجر (على) غاية في الروعة؛ لأنّه يفيد الاستعلاء، والتمكن، وقد جاء هنا منفيًّا بصورة مغلظة، بدخول النافي، وبنفْيِ مطلقِ السيطرةِ التامة على أي مخلوق يريد الدخول، أو عدم الدخول في الإسلام، وتنكير (مسيطر) يُدخِل تحته كلَّ ألوان السيطرة، وطرق الإرغام، وكل سبل التمكن، والضغط، والإكراه، فالنفي هنا المؤكَّد بحرف الجر الباء، وحرف الجر (على) كله زاد من تعميق مفهوم الحرية الدينية، وَوَسَّعَ من نطاقاتها، وأكد عليها، وشَرَّعَ لها، ورسَّخَ من دلالاتها، وأبدى وضوحَ الإسلام في قضية اعتقاده، والدخول فيه؛ حيث إنّ الاعتقاد يحب الحرية، ويرنو إليها بكل سبيل، ويدفع إليها، وإلى العمل بها بكل طريق، وأسلوب، ووسيلة، وزاد في تفسير الجلالين الميسر: " وهذا قبل الأمر بالجهاد"[٣].

الآية الثالثة والعشرون: " إِلَّا مَنْ تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ (٢٣) ".

هنا بدأت الآية بأسلوب الاستثناء المنقطع، وهو بمعنى الاستدراك، والمعنى: لكن من تولى عن التذكر، ودام على كفره- يعذبه الله العذاب الشديد، ودخلت الفاء في الخبر، وهو (فيعذبه الله)؛ إذ كان الكلام استدراكا، وكان الكلام موصولا، فأشبه

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.
(٢) ينظر: تفسير التحرير والتنوير، ٣٠/ ٣٠٧-٣٠٨، والبحر المحيط، ١٠/ ٤٦٥، وتفسير البغوي، ٨/ ٤١١.
(٣) الكشاف للزمخشري، ١١٨٩، تفسير الجلالين الميسر، ٥٩٢، والتفسير الوسيط للقرآن الكريم، ١٨٩٢-١٨٩٣.

بموقعه، وبعمومه الشروط، فأدخلت الفاء في جوابه، ومثله كقوله تعالى:" والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم"[1]، كما تدل(إلا) تدل على ارتباطها بما قبلها، وتمسكها بما بعدها، وهو أسلوب قرآني دقيق، حيث تجد الآيات تنتهي بفعل، والتي تليها تبدأ بالفاعل من شدة التماسك، أو ارتباط شبه الجملة في الآية التالية بما قبلها في الآية الأولى، أو حتى بداية سورة قرآنية بنهاية سورة قبلها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾[2]، فقوله :" رجال..." في الآية الثانية هو فاعل لقوله-:"يسبح... " في الآية السابقة، ونحو قوله- تعالى-:﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾[3]، حيث ارتبط شبه الجملة:(في الدنيا والآخرة) في بداية الآية الثانية بالفعل(تتفكرون) في نهاية الآية الأولى، ونحو قوله- تعالى-: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ

(١) سورة محمد ، الآية : ٤.
(٢) سورة النور ، الآيتان : ٣٦-٣٨ .
(٣) سورة البقرة ، الآيتان : ٢١٩-٢٢٠.

﴿كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾[١]، حيث ارتبط شبه الجملة(من أجل ذلك" في بداية الآية بما قبلها من قوله- تعالى-:"فأصبح من النادمين من أجل ذلك"، على رأي أهل الوقف، والابتداء الذي يقولون بذلك، ويجعلون القارئ يعود ببعض ألفاظ الآية السابقة ليقرأ بعدها من أجل ذلك، أو يجعلون القارئ يوصل الآية بما قبلها، فيقول:" فأصبح من النادمين من أجل ذلك"، على أنّ وقفا آخر يبدأ بالآية رغم تعلقها بما قبلها؛ لأنّ السنة الوقوف على رؤوس الآية، وأنّ شبه الجملة (من أجل ذلك"، متعلق بما بعده، أي (من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنّه..."، والوقفان معمول بهما عند علماء الأداء، وأهل الوقف والابتداء، وهكذا هي لغة الكتاب العزيز، فالاستثناء (إلا من تولى وكفر) متعلق بما قبله، أي لست عليهم بمسيطر فاترك من يؤمن، واترك من يكفر، فالجزاء عندي إلّا من تولى وكفر"، فيعذبه الله العذاب الأكبر ، فذلك لله وحده، وليس لك[٢].

والفعل (تَوَلَّى) بتشكيلته الصوتية يفيد الامتطاء والتثني والجري، وكأنّ قسورة تمضي خلفه، وهو يتولى، ويسرع؛ خوفا منها، واللام المشددة تبين سرعة الخطو، وتَلَاحُقَهُ، وكأنّك لا تكاد ترى قدميْه من شدة الجري، والرفع والخطو السريع للقدمين، وألفُ المدِّ في آخره تعني إطلاق السرعة، وفتح المسافات، والجملة الفعلية بعده: (وكفر) كناية عن وعيه بما يفعل، وارتضائه ما يريد، وهو التولي والبعد واختيار الكفر، وحياة الظلام، فحرف العطف مع ما قبله قد أعطانا صورة حقيقية لهذه الشخصية التي اختارت- دون سيطرة من أحد- أن تتولى مسرعة ، وأن تكفر عن رضا وكامل الحرية، وأن تختار طريق الكافرين، وسبيل المتولِّين عن ربهم، السالكين طرق الظلام والكفران، والبعد والحرمان، وحياة الشهوة وتنكب طريق الرحمن.

(١) سورة المائدة ، الآيتان : ٣١-٣٢).
(٢) ينظر في ذلك تفسير البغوي ، ٨/ ٤١١، والكشاف / ١١٩٨، والتفسير الوسيط للقرآن الكريم، ٨/ ١٩٩٣-١٨٩٤ .

ولـو جعلنـا (مـن) موصولـة أي بمعنـى الـذي ، أو شرطيـة، فـإنّ الآيـة التـي بعدهـا تعـد جـواب الـشرط، أي إلّا مـن تـولى وكفـر فيعذبـه الله العـذاب الأكـبر، وأكـد شرطيتهـا اقتران الجـواب بالفـاء، وإذا جعلناهـا موصولـة كانـت الفـاء عاطفـة تعطـف آيـة عـلى آيـة، وبالآيتـين يتضـح المـراد، ويبـين المقصـود(1).

عطانامثلة ما قلته الآيات الآتية، قال الله – تعالى-:"

الآية الرابعة والعشرون: " فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (٢٤)".

قـد تكـون الفـاء الواقعـة في جـواب الـشرط ، أي الفـاء الرابطـة في جملـة الـشرط عـلى التفسـير السـابق، أو تكـون فـاء العطـف عـلى توجيـه (مـن) في الآيـة السـابقة، واسـتعمال الفـاء هنـا يفيـد السرعـة، وأنّـه لا فاصـل بـين إرادة العبـد التـولي، وحصـول الكفـر، ومشـيئة الله في العـذاب، والجـزاء؛ ليحيـا مـن حَـيَّ عـن بينـة، ويَهْلِـكَ مَـنْ هلـك عـن بينـة، وليبـصر كل منـا موضـع قدميـه، ويمـضي عـلى بينـة ونـور، وفهـم، وتعقـل، ويختـار مـا يريـد، ويمـضي حيـث يشـاء، ويختـار، جـاء في كلام أبي حيـان في البحـر نقـلا عـن الزمخـشري قولـه:" ولما كان مـن مذهـب الزمخـشري أنّ تقديـم المعمـول يفيـد الحـصر قـال: إنّ إيابهـم ليـس إلّا إلى الجبـار المقتـدر عـلى الانتقـام، وأنّ حسـابهم ليـس بواجـب إلّا عليـه تعـالى ، وهـو الـذي يحاسـب عـلى النقـير والقطمـير، ومعنـى الوجـوب الوجـوب في الحكمـة، والله أعلـم"، وبالطبـع فإننـا لسـنا مـع الزمخـشري في إيجـاب تعذيبهـم عـلى الله، وهـو راجـع إلى اعتقادهـم في وجـوب محاسـبة العـاصي، ووجـوب إثابـة الطائـع، ولا نـرى رأيـه، ولا نديـن بـه، فـالله لا يجـب عليـه شيء؛ إذ كل شيء يرجـع إليـه: العـذاب، أو العفـو(2).

والفعل(يعـذب) مضـارع، يفيـد الاسـتمرار، وتشـديد الـذال يوحـي بشـدة العـذاب، وتواصلـه، والفاعـل هنـا هـو الله تعـالى، والعـذاب عـلى قـدر المعـذِّب، فـما بالـك أيهـا المتـولي الكافـر بـأن يكـون معذِّبُـك هـو الله الـذي يملـك السـموات والأرض، وهـو خالـق

(١) إعراب القرآن وبيانه للدرويش ، ١٠/ ٤٦٠-٤٦١، والبحر المحيط ، ١٠/ ٤٦٥-٤٦٦ .
(٢) ينظر البحر المحيط ، ١٠/ ٤٦٦، والتحرير والتنوير ، ٣٠/ ٣٠٨،والكشاف ، ١١٩٩.

كل شيء، والقادر على كل شيء، والذي لا يقف أمام عذابه شيء، ولا أحد مهما كان يمكنه دفع عذابه، والتعبير بالعذاب الأكبر باستعمال أسلوب التفضيل المعرف بـ(أل) يوحي بخطورة العذاب، وشدته، وتنوُّعه، وحِدَّته، واسم التفضيل المعرف بأل لا تدخله "من"، فلا يقال: "العذاب الأكبر من غيره"؛ لأنّه مُعَرَّفٌ بأل، نقول هذا عذاب كبير، وهذا عذاب أكبر منه، وأمّا هذا فهو العذاب الأكبر، أي الذي بلغ كلَّ العِبَرِ، ولا شيء يقارن به، ولا عذاب فوقه، فاستعمال(الأكبر) كناية عن أنّه لا شيء فوقه، وأنّه لا يمكن أن يتحمل من الجبال الرواسي، والأرضين الثوابت، وهو عذاب أعظم وأكبر من كل عظيم، وكل كبير، وأنّه العذاب الذي لا عذابَ بعده، ولا قبله.

والآية كناية عن صفة هي الخوف الشديد، والوجل العتيد، والتحذير الأكيد[1].

الآية الخامسة والعشرون: " إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥)".

وفي هذه الآية والتي بعدها تختتم السورة، وتورد أمرين مؤكدين تأكيدًا كبيرًا، ومرتبطتين ببعضهما بوشاح العطف، ورباط التأكيد، وتُشَدَّانِ إلى بعضهما اشتدادًا عظيمًا، وتتماسكان تماسكا عضويًّا، الأولى منهما هي تلك الآية، التي هي أسلوب تأكيد، أداته "إنّ" المكسورة وجوبًا؛ لوقوعها في أول الكلام، وهناك عارضُ التقديم بشبه الجملة: (إلينا)، واستعمال(نا) التي تفيد العظمة، وهي الضمير العائد على الله العظيم القوي المتين، واستعمال: (إلى) هنا يفيد انتهاء الغاية الزمانية والمكانية معًا"، فالمآل إلى الله: زمانًا، ومكانًا، وتأخّر اسم "إنّ" جوازا لتتشوَّف النفس إلى معرفته، وتَتُوقَ إلى العلم به، وضمير الجمع(هم) في (إيابهم) يفيد أنّه لا مفرَّ لأحد، ولا مهربَ لأيِّ إنسان، مهما كان، فالجميع آيبٌ إلى ربه: كافرهم، ومؤمنهم، ضالهم، ومهتديهم، عاصيهم وطائعهم، ولو تصورت أنّك واردٌ آيب إلى ربك، وتخيلْتَ تلك اللحظة لما فعلت إلّا ما يرضيه، ولا اقترفتَ ما يغضبه ؛ لأنّك صائر إليه ، ووارِدٌ عليه،

(١) ينظر البحر المحيط، ١٠/ ٤٦٦، والتحرير والتنوير، ٣٠/ ٤٠٨-٤٠٩، والكشاف، ١١٩٩، وإعراب القرآن وبيانه للدرويش، ١٠/ ٤٦٠-٤٦١.

ومعروض بين يديه، وهو عالم بكل خطرة منك، وكل حديثِ نفسٍ قبل أن تخرجَه علنًا، وتُفصِحَ به، وتقديم متعلق الخبر يفيد سرعة الإياب، وحتميته، وتقديمه كناية كذلك عن الخوف، والوجل من ملاقاته وحدك، دون سند، ولا ظهير، ولا معين، ولا نصير: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾[1]، ونحو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾[2] والتعبير بالإياب هو تعبير بالعود الأخير الذي لا رجوع عنه، ولا مهرب منه، وأنّه لا بد منه، وذلك أمر مخيف حيث لا عودة للاستدراك، ولا مفر من الحساب، والعقاب لكل من تولى وكفر، أو آمن واستقر، وعبد الله عن رضا، والرضوخ إلى جليل أمر، وحسن التزام في الطاعة، والسير[3].

الآية السادسة والعشرون: " ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢٦) ".

هي الآية الثانية المؤكَّدة، والمعطوفة على سابقتها، والتي تبيِّن القسمَ الثانيَ من التأكيد، وهو أنّ الإياب إلى الله، وأنّ الحساب على الله، لا على أحد سواه، والتعبير بـ(ثم) يفيد الترتيب، والتراخي؛ لأننا لا نزال في الدنيا، ولم يأت بعد يومُ القيامة، ثم أداة التأكيد، ودورها في تعميق الدلالة في النفس (إنَّ) المكسورة الهمزة، وعارض التقديم الجائز (علينا)، الذي تقدم لِيَجْبَهَهُمْ، ويريَهم مَنْ هم، وتأخَّر اسمها للتشوف إلى معرفته، والتَّوْق إلى إدراكه، واستعمال حرف الجر (على) يفيد أنّ الله – تعالى – قد

(١) سورة مريم، الآيات: ٩٣–٩٥.
(٢) سورة إبراهيم، الآيات: ١٩–٢١.
(٣) ينظر التحرير والتنوير، ٣٠/ ٣٠٩–٣١٠، البحر المحيط، ١٠/ ٤٦٥–٤٦٦، والكشاف، ١١٩٩، وتفسير البغوي، ٨/ ٤١١.

ألزم نفسه معاقبة المسيء، وإسعاد المطيع، وأنّ جمع الضمير(هم) في قوله:(حسابهم) ما يدل على القدرة الإلهية، والعظمة الربانية في حساب كل هؤلاء البشر: طائعهم وعاصيهم، مؤمنهم وكافرهم، مهتديهم وضالهم، وأنّه لا يخرج أحد من تحت مشيئته، وأنّ الجميع معروض عليه، ومحاسب بين يديه، وصائر لا محالة إليه، والجملتان كلتاهما مؤكدتان، وهو كناية عن وقوع ذلك الإياب، وحصول ذلك الحساب، ولا شك في ذلك، ولا محيص عنه، ولا مهرب منه[1].

والناظر للسورة، والمتأمل لأساليبها، ومواضع تماسكها يجد العجب، فقد دخلتْها أساليبُ لغويةٌ كثيرة، رغم قصر آياتها، وهو ما تتصف به السور المكية، فمنها أسلوب الاستفهام بأدواته المختلفة، وأسلوب الحذف، وأسلوب النفي بـ"ليس"، وأسلوب النفي بـ(لا)، وأسلوب التقديم والتأخير الذي تكرر كثيرا، والأسلوب الذي اجتمعت فيه أداتان بينهما جملة محذوفة (أفلا ينظرون..."، وأسلوب الأمر، وأسلوب التأكيد بإنّما، والتأكيد بدخول حرف الجر الصلة (الزائد)، وأسلوب الاستثناء، وأسلوب التفضيل، وأساليب العطف سواء بالواو أو ب(ثم).

ودخله كذلك أسلوبُ السؤال والجواب، وتعدُّد العاطف، وجُمَلِهِ المعطوفة، وأسلوبُ الإحالة بالضمير الرابط المُمَسِّكِ لنسيج النص، وأسلوب التعلق بمجيء أشباه الجمل متعلقةً بأخبارها المحذوفة، وأسلوبُ الوصف المتعدد، وكلُّ أسلوب له دلالاته ، ومعانيه، ومراميه، ومقاصده، ومغانيه، وأسلوب البناء لما لم يُسَمَّ فاعله، أو البناء للمجهول- كما يحلو لبعضهم أن يُسَمِّيَهُ-، وأسلوب الشرط، وغيرها مما هو مبثوثٌ في طوايا السورة، وزواياها، ووارد بين ثناياها.

وقامتْ أدوات العطف بوضع صورة كلية لكلِّ صنف من الصنفين المعروضين من أول السورة إلى آخرها، ورسمتْ لنا صورة كلية لو رسمها رسامٌ محترفٌ لكانت

(١) ينظر تفسير البغوي ، ٨/ ٤١٠، وتفسير الجلالين الميسر ، ٥٩٢ ، وإعراب القرآن وبيانه ، ١٠/ ٤٦٠-٤٦٤ ، والتحرير والتنوير ، ٣٠/ ٣٠٨-٣٠٩ والتفسير الوسيط للقرآن الكريم ، ٨/ ١٤٩٨

قَيْدَ العين، جاذبة للنظر، والروح، والقلب، لا تطرف معها عينٌ، ولا يغمض منها جفنٌ، ولا يذهب عنها تأملٌ، ولا تفكيرٌ.

نشأت على سؤال، وجواب آسر، يجعل المرء مشدوها للجواب المتواصل الخيال، المترامي المعاني، المتداخل المباني، وقد أعطتنا السورةُ صورةً واضحة عن يوم القيامة، ذلك اليوم، الرعيب، الرهيب، الشديد، وأوضحت لنا كيف نخطو، وكيف نفكر، وكيف نمضي في حياتنا على بينة ، ونور، وأن نقدِّر لخطونا بعناية بالغة، وكيف نقدر لأقدامنا قبل الخطو موضعَها، وأن نحيا على بصيرة، ووعي، وأن نُعِدَّ العُدة لهذا اليوم الموعود، وأن نأخذ أمرنا بجدية قبل فوات الأوان، وحضورِ وقتِ العود، والإيابِ، وشهودِ يوم الحساب.

اللهم، علِّمْنا لغة كتابك، وبصِّرنا بعزةِ، وعظمةِ كتابك، وفهِّمْنا قواعد العربية؛ حتى نحسن الإدراك عنك، ونتفهم منك، ونعود إليك، ونؤوب إلى دينك ايابا حميدًا، ونعود عودًا رشيدا، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله، وسلم، وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.

الخاتمة:

لعلَّ من أهمّ النتائج التي خرج بها البحثُ في تحليل تلك السورة ما يأتي:

– أنّ السورة قد دخلها من العوارض التركيبية الكثيرُ كعارض الحذف، وعارض التقديم والتأخير، وعارض الزيادة (عند من يقول بوقوع الزائد في القرآن الكريم) ، ولكنَّ عارض الحذف كان أكثرَ تلك العوارض ورودا ، وتضمَّن دلالاتٍ أعمقَ من دلالات الذكر، ففي الحذف إطلاقٌ، وفي الذكر تضييق، وتقييد، فمجالات الحذف فيها أكثر من مواضع الذكر.

– أنّ التقديم كان وراءه من التعجيل بالمسرة، أو المسارعة بالعذاب، وفيه عناية وبيان الأهمية، كما أنّ للتأخير دلالات تكمن في التشويق وانتظار معرفة المتأخر ، وفيه

كناية عن التهكم بعد الذكر، وبيان انتقاص المكانة ، وذهاب المنزلة، ونحوها من الدلالات المبثوثة في طوايا التحليل، والدراسة.

– دخل السورة أسلوبُ اجتماع أداتين متتاليتين، بينهما جملة محذوفة، الغرض منها اعتصار الذهن للوقوف على ماهية المحذوف، وإطلاق الخيال في فهمه، واستيعابه، وإدراك كنهه، ومعرفة مراده.

– كما أنّ السورة قد دخلها ما يسميه البلاغيون براعةَ الاستهلال، بالبدء بسؤال فيه جذبٌ للنفس، وتجميع لقواها العقلية، ثم جريان السورة، وقيامها على الجواب عنه، والتوضيح له.

– دخل السورة من الأساليب الخبرية، والإنشائية الكثير، وتداخل الأسلوبان، وتناغَما في وضع مقاصدها، والكشف عن مراميها، وإقرار ما أرادته، وترسيخ ما رَمَتْ إليه، بحيث بدا كلٌّ منهما مُعِينًا لأخيه في بيان المراد، وتعميق المعنى المقصود منها.

– أنّ السورة قد ركزت في أنماطها اللغوية القصيرة على ما نهضتْ له السورُ المكية من بيان العاقبة، وتوضيح المآل، وبيان عواقب الكفر، والمعصية، ونتائج الإيمان، والطاعة بصورة واضحة للعيان، وبكل ألوان التعبير البياني الرائع، وجاءتِ الأساليبُ أعمقَ تماسكًا، وأوسعَ تداخلا، وأشدَّ تناغمًا، وقامتِ تلك العوارض بدور كبير في الكشف عن مضمون السورة، ورسْم كلِّ ملامحها، بكلِّ دقة، وحبك، وسبك، وترابط، وتماسك، بحيث أسهمتْ في بيان وَحدة النسيج الدلالي للسورة، وتداخُلِ خيوطها، وارتباط معانيها ارتباطا آسرًا، وكان الحبكُ في كل آية يُرَى من وراء السبك، ويرتبط بها ارتباطا عجيبا، ويترتب عليه ترتبا شديدا.

– أنّ الروابط اللفظية الواردة في السورة كحروف العطف، وحروف الجر، وأدوات الشرط، والاستفهام، وأدوات النفي، وحروف الربط– قد أسهمت هي الأخرى في قضية التعلق التي ارتبطتْ بها قضايا الدلالة بكل وضوح، وعُمق، وبيانٍ، ووضع

رؤية كلية لمآل الوجهين المشروحين، اللذين بنيت عليهما مرامي السورة، ومعانيها، ومقاصدها، ومبانيها.

– أنّ هناك روابطَ خفيةً أسقطها التركيبُ، وخصوصًا تتابعَ الصفاتِ دون عاطفٍ؛ كأنها موجودةٌ، وكان حذفُها أجملَ، وأعمقَ أثرًا، وأكثرَ بيانًا.

التوصيات والمقترحات:

أولا: التوصيات:

كان من أهم التوصيات الآتي:

– أن تنشأ على السورة دراساتٌ أخرى كدراسة أثرِ الروابط اللفظية في التماسك النصي، وأثر قضية التعلق، وما وراءها من دلالات، وأهداف، وغايات، وما ترمي إليه من الكشف عن أثر الخيال في وضع رؤية كلية لمآلات الوجوه المذكورة، وعواقب أهلها، لتنهض النفس بما تريده منها.

– ضرورة إفساح المجال لبيان الوجوه الإعرابية للتراكيب القرآنية، وما وراء كل وجه من دلالات، وما يريده القرآن في توجيهاتها من معانٍ، وأغراض.

– دراسة قضايا السبك والحبك في السورة الجلية، وبيان أثرهما في وحدة النسيج اللغوي للنص القرآني، والتداخل بين خيوط التراكيب من الوجهتين: اللفظية، والمعنوية، وبيان كيف تعاونا في إبراز غايات السورة، وأهدافها.

– التوسع في دراسة عوارض التركيب في السورة ، وما خلَّفتْه من دلالات، وما قامتْ به من معانٍ، سواء بالحذف، أو التقديم والتأخير، أو الزيادة، واستقراء ما كتبه المفسرون حيالها، وجمعه لبيان وجه الإعجاز في كل عارض.

ثانيا: الاقتراحات:

يقترح البحث جملة من المقترحات، لعل من أهمها الآتي:

– جمع كل ما كُتِبَ من دراساتٍ لغوية حول سورة الغاشية، ووضعه في مجلد

واحد، ونشْره على صفحات التواصل الاجتماعي، وشبكة المعلومات الدولية: (الإنترنت)، وتقريبه للقُرَّاء؛ لبيان وجوه الإعجاز البياني، والبلاغي فيها، وتنوير القارئ بشيء من ألوان الإعجاز اللغوي ممثلة فيها، وفي دراساتها.

- وضع كُتيِّبَاتٍ بالموضوعات المتعلقة بالسورة، التي انتهى الباحثون منها مُوجَزَةً، والإشارة إلى أماكنِ وجود البحث الأصلي فيها؛ ليسهل العود إليه، والإفادة منه، وأن يتمكن الناس من أن يقفُوا على آخر الدراسات فيها، ونهاية المستجدات حولها.

- أن تقوم إحدى دور العناية بنشر، وطباعة، وإخراج الجوانب البلاغية، واللغوية في القرآن الكريم بتبنِّي نَشْرِ كلِّ ما كتب فيها، وإخراجه في سلسلة متتابعة، والإعلان عنه في كلِّ وسائل التواصل الاجتماعي؛ ليعلم من يرتبط بالقرآن الكريم بالبحث، والدراسة ما نهض لبيان السورة، والكشف عن طاقاتها التعبيرية، وإمكاناتها اللغوية، وعمل مثله في سور أخرى مشابهة، وجَمْع ذلك كله في مجلدات، وطبْعه، ووضْع نسخٍ منه في الجامعات، والمؤسسات التي تُعْنَى بالدراسة اللغوية، واللسانية للقرآن الكريم، وتيسير وصول تلك الجهود إليهم بنشرها، أو تيسير أخْذ نسخ منها حول العالم، وترجمتها، مع الاحتفاظ باسم كاتبيها، وباحثيها، وطرقِ التواصل معهم، ومناقشاتهم، في كلِّ ما قدموه، وبيان المصادر، والمراجع التي اعتمدوا عليها في كتابتها، والامتياح منها، والرجوع إليها في إعداد بحوثهم، ودراساتهم، وأعمالهم العلمية، والأكاديمية.

هذا، وبالله التوفيق، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله، وسلم، وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله، وصحبه، وسلم أجمعين.

المصادر و المراجع

١- أساس البلاغة تأليف الإمام العلامة جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري- دار صادرن، ١٣١٩هـ ، ١٩٧٩م.

٢- الأساس في التفسير تأليف سعيد حوى – رحمه الله تعالى- دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، حلب ، سورية ، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٥ م.

٣- إعراب القرآن وبيانه ، الأستاذ محيي الدين الدرويش، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق بيروت ، ودار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع دمشق بيروت، ودار الإرشاد للشؤون الجامعية حمص سوري الطبعة الثالثة ١٤١٢هـ، ١٩٩٢ م.

٤- البحر المحيط في التفسير لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي (٦٥٤ هـ ، ٧٥٤ هـ) بعناية الشيخ عرفات العشا حسونة ، مراجعة صدقي محمد جميل ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٤٣١ هـ ، ١٥٢٣ – ٢٠١٠ م.

٥- التبيان في إعراب القرآن يعرض لأهم وجوه القراءات ويعرب جميع آي القرآن، تأليف أبي البقاء عبد الله بن الحسين العُكْبَرِي(ت ٦١٦ هـ) ، تحقيق علي محمد البجاوي، عيسى البابي الحلبي وشركاه بدون.

٦- تفسير البغوي معالم التنزيل للإمام ، محيي السنة أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي(ت ٥١٦ هـ) ، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر وعثمان بن جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع ، ١٤١٢هـ .

٧- تفسير التحرير والتنوير ، تأليف سماحة الأستاذ الإمام الشيخ الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر ، تونس ١٩٨٤ م.

٨- تفسير الجلالين الميسر – ط الحلبي- ١٣٧٤هـ ، ١٩٥٤ م.

٩- تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي(٤٧٦-٥٣٨ هـ)، اعتنى به، وخرج أحاديثه، وعلق عليه خليل مأمون شيحا، دار المعرفة ، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة ١٤٣٠هـ ،٢٠٠٩ م.

١٠- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، تأليف لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية ، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ ، ١٩٩٢م.

١١- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، تأليف العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، قدم له الشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل، وفضيلة الشيخ محمد الصالح العثيمين، اعتنى به تحقيقا ومقابلة عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ ، ٢٠٠٢ م.

١٢- الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان ، تأليف أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (ت ٦٧١ هـ)، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، وشارك في تحقيق هذا الجزء محمد رضوان عرقسوسي (الجزء الجادي والعشرون) ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ١٤٢٧ هـ ، ٢٠٠٦م.

١٣- القاموس المحيط مرتب ترتيبا ألفبائيا وفق أوائل الحروف، تأليف مجد الدين بن محمد بن يعقوب الفيروز آبادي للفيروزآبادي(ت١٢٩١ هـ) ، دار الحديث القاهرة ، راجعه واعتنى به أنس محمد الشامي، وزكريا جابر أحمد ، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨ .

١٤- معالم التنزيل ، للإمام محيي السنة أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، حققه، وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة خميرية وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع الرياض السعودية ، الطبعة الأولى ١٤٠٩-١٩٨٩م.

١٥- معاني القرآن ، لأبي الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش الصغير، تحقيق الدكتورة هدى محمود قراعة ، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ، ١٩٩٠ م.

١٦- معاني القرآن وإعرابه للزجاج أبي إسحاق بن إبراهيم السَّرِي (المتوفَّى سنة ٣١١ هـ) ، شرح، وتحقيق دكتور عبد الجليل عبده شلبي ، عالم الكتب ، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٨م.

١٧- المعجم الوسيط- مجمع اللغة العربية- الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث الطبعة الرابعة: ١٤٢٥هـ ، ٢٠٠٤ م- مكتبة الشروق الدولية.

١٨- المفردات في غريب القرآن تأليف أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفاني (ت ٥٠٢ هـ)- تحقيق وضبط محمد سيد كيلاني- دار المعرفة- بيروت- لبنان- بدون.